الحجُّ وروح العبادة فيه

تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

الحمد لله، شرع لعباده مِنْ العبادات ما يزيد به إيمانهم وتسمو به أرواحهم، وتعلو درجاتهم، وتُقال عثراتهم، والصلاة والسلام على خير من حجَّ إلى بيت ربه الحرام، وطاف وسعى، ووقف في عرفات، وبات في مزدلفة، ورمى الجمرات، ونحر وحلق في خشوع وخضوع وسكينة وخشية، صلى الله وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار، وبعد.

فإنَّ الحجَّ إلى بيت الله الحرام عبادةٌ جليلةُ القدْر، رفيعةُ الشأن، عظيمةُ الأجر، وهو العبادة الوحيدة التي سُمّيت بها سورة في القرآن، وفُصِّلت فيه أحكامه ما لم تُفصَّلْ في غيره من العبادات، وفي هذا دلالة على عناية الله بهذا الركن، ومكانته الكبيرة عنده، يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وقد ظهرت عناية الله تعالى بهذه العبادة العظيمة، إِذْ بسط تفاصيلها وأحوالها مع تغيير ما أدخله**

أهل الجاهلية فيها)[1].

وعباداتُ العبدِ لربه -ومنها عبادةُ الحجِّ- حقها أن تُؤدى على أكمل وجه، فلا تكون جوفاء، أوْ تُؤدَّى بلا روح، أو تُفعل بذهول وغفلة، فمن أدَّاها هكذا لم تُؤتِ أُكُلها، ولم ينتفع بها صاحبها النَّفعَ المرجوَّ منها، وقد تتحول عند الإنسان إلى عادة أو حركات مجرّدة، ظاهرها التعبّد، لكنها تفتقد لِلُبِّ العبادة (من الإخلاص لله، وحضور القلب فيها، والتلذّذ بها) بل ربما فُعلت على وجه التخلّص، وكأنّها إلقاءُ حملٍ عن الظهر.

ومن أدّى فرض الحجِّ سيسقط عنه فرضه ولا شك، مالم يأتِ بمبطلٍ له، لكنَّ مسألة الأجر والثواب قد دلَّت نصوص الشريعة على أنَّ مقدارها بحسب حضور القلب في العبادة، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في شأن الصلاة: **"إنَّ الرَّجَل لينصَرِفُ وما كُتِبَ لَهُ إلاَّ عُشرُ صلاتِهِ، تُسعُها، ثُمنُها، سُبعُها، سُدسُها، خُمسُها، رُبعُها، ثُلثُها، نِصفُها"**[2].

---

(١) [التحرير والتنوير: ٢/ ٢٣١]

(٢) رواه أبو داود.

وهكـذا فإن الأجر يكـون في الحجِّ وغيره مـن العبادات على قدر حضور القلب فيه.

ولَمَّـا لم يلتفت بعض العُبَّادِ لهذا الشـأن ضعف أثر العبادات عليهـم، فتجد عنـد مَنْ يصلـي الغيبـة والنميمة، والتعـدِّي على حقوق الآخرين؛ لأنّها لـم تُؤَدَّ على الوجه الأمثل، وربما لا تَرى أَثَرًا عند بعض مَن أدَّى شعائر الحجّ، وإن كان السواد الأعظم إن شـاء الله قد انتفعوا بهذه العبادات، ولكن تَبقى طائفةٌ منهم تحتاج إلى مزيد عناية لإيقاع هذه العبادة على الوجهِ الأمثل حتى ينتفعوا بها الانتفاع الأكمل.

ولأنَّ الحـِّج يعتريه ما يعتريه من المشـقة، والذهول عند أدائه لكثرة الناس واشـتداد الزحام، كان لزامًا على من يُؤديه أن يُراعي هـذا الجانب المهـم، وتحقيق مقاصـده (من اسـتحضار جانب العبودية فيـه، وأدائه على أكمل وجه، والشـعور بروح العبادة في كل منسك من مناسكه)

وكذلك (تحقيق التقوى) فالحاجُّ يتجرّد من ملابسـه المعتادة ليلبـس ملابس الإحـرام، ويطوف ويسـعى، ويقـف في عرفات،

ويبيت في مزدلفة، ويرمي الجِمار، ويحلق أو يُقصِّر، ويذبح هديه، ويطوف في البيت للوداع متنقِّلاً بين هذه العبادات والمناسك، منقادًا لأمر ربه، وإن كان غابَ عنه شيءٌ من حِكم هذه العبادة، إلا أنَّه يعلم يَقينًا أنَّها مليئة بالحِكم التي تزيد في إيمانه بها وبمشروعيتها، ولذا ينبغي عليه أن يسعى لفهم مقاصدها فـ(فهم مقاصد العبادة وأسرارها وحِكمها يساعد بشكلٍ كبيرٍ في تعظيمها وحضور القلب عند القيام بها، وممَّا أضعف أثر الحج في نفوس بعض المسلمين هو الانشغال كثيرًا بالجانب الفقهي لأدائها -على أهميته- وعدم الانتباه والتدبُّر في الجانب المقاصدي لهذه الفريضة العظيمة)[1].

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما الحجُّ فشأن آخر لا يدركه إلا الحنفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم، وشأنه أَجَلُّ من أن تحيط به العبارة، وهو خاصَّةُ هذا الدين الحنيف، حتى قيل في قوله تعالى: (حنفاء لله). أي: حُجَّاجًا)[2].

(١) [مقاصد الحج في ضوء القرآن الكريم:محمد الخولي]

(٢) [مفتاح دار السعادة:٨٦٩/ ٢]

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: (أفعالُ الحج وأقوالُه كلها أسرار وحكم المقصود منها القيام بالعبودية المتنوعة، والإخلاص للمعبود؛ فالحجُّ مبناه على الحبِّ والإخلاص، والتوحيد، والثناء، والذكر للحميد المجيد، فإنما شرعت المناسك لإقامة ذكر الله)[1].

والغاية من العبادات كلها صلاح النفس، وتحقيق التقوى، وحصول الخشية، وسبيل هذه الغايات النفيسة (الإخلاص فيها، وإتقان العبادة، وإيقاعها على أحسن وجه).

ولو أنَّ الحاجَّ أدّى مناسك الحجِّ على أكمل وجه، لعاد بقلبٍ غير القلب الذي خرج به، ولرجع من حجِّهِ راغبًا في الخير، نافرًا من الشَّرِّ لأَنَّهُ قد ذاق حلاوة الطاعة، ووجد لذة العبادات، وأنست روحه بمناجاة ربه، ولذا لَمَّا سُئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن علامة قبول الحجِّ، قال: (أن يكون أزهد في الدنيا، أرغب في الآخرة)

(١) [مجموع الفوائد واقتناص الأوابد:٢٦٥]

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[1] إشارة واضحة إلى أن يسعى العبد لإخلاص القصد لله، وإتمام هذه العبادة على أكمل وجه أمكنه، ومن أعظم أسباب ذلك: التفقّه فيها، ومعرفة شروطها وأركانها وواجباتها، والحرص على تحقيق كل ذلك، وليس هذا فحسب، بل البحث عن السُنن، ومواقف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما فعله في هذه العبادة العظيمة، وتَتَبُّع خطواته خطوة خطوة، لتقع عبادته على ما أتى به أعلمُ الناس بربه، والحرص على أن يكون الحج على السُّنَّة، وكم سيجد العبد من الراحة والطمأنينة والخشوع إذا هو تصوَّرَ رسولَ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمامه في كل موقف يقفه، وفي كل خطوة يخطوها، فيسير حيث سار، ويقف حيث وقف، ويسرع حيث أسرع، ويتمهَّل كما تمهَّل، ويرفع يده حيث رفعها، ويستلم ما استلمه، ويدع ما تركه، ويشير حيث أشار، وهكذا.. في اتِّباعٍ كامل، ولك أن تتصوَّر حضور قلب من سلك هذا النهج في عبادة الحجِّ.

(١) [سورة البقرة: آية ١٩٦]

إِنَّ خـروج الحاجِّ من بلده قاصدًا البيـت الحرام لأداء فريضة الحـج من دلائـل إيمانه إن شـاء الله، فهو يخرج مـن بيته ومكان إقامته ومحل راحته، تاركًا وطنه وولده، وصارفًا ماله، ومحتسـبًا مـا يلقـاه من تعـب ونصـب، يفعل ذلـك مسـتجيبًا لربـه، مبتغيًا مرضاتـه، طامعًا في الثـواب، فينبغي عليه احتسـاب ذلك عند الله عنـد الخروج من بلده، مسـتصحبًا ذلك طوال حجـه، وحريٌّ به وقد وُفِّقَ له، وتيسَّـرت له سـبله، واستوى على دابته أن يُفَرِّغَ جُلَّ وقتـه للعبادة، فالحـجُّ فُرصةٌ للتزوُّد منها، قـال الجريري: (أحرم أنسُ بن مالك من ذات عرق قال: فما سمعناه مُتكلِّمًا إلا بذكر الله حتى حَلَّ، وقال: يا ابن أخي، هكذا الإحرام)

وقال خلاَّد بن عبدالرحمن: (سألت سعيد بن جبير: أي الحاجِّ أفضل؟ قال: من أطعم الطعام، وكفَّ لسـانه. قال الثوري: سمعنا أَنَّهُ من بِرِّ الحج)

قال ابـن قدامة: (ويُسـتَحَبُّ له قلَّة الكلام إلا فيمـا ينفع، فإنَّ من كثر كلامه كثُر سَـقَطُهُ، وفي حال الإحرام أشـدُّ استحبابًا، لأنّه حـال عبادة واستشـعار بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ فيُشـبه الاعتـكاف، وقد

احتج أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك بأنَّ شريحًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ "كان إذا أحرم كأنَّهُ حَيَّةٌ صَمَّاءُ"، فيستحب للمحرم أن يشتغل بالتلبية وذكر الله تعالى، أو قراءة القرآن، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، أو تعليم لجاهل، أو يأمر بحاجته، أو يسكت، وإن تكلم بما لا مأثم فيه، أو أنشد شِعرًا لا يَقبح، فهو مباح ولا يُكثر).

لقد اعتنى الصالحون في الحجِّ بالعبادات بسائر أنواعها، وصرفوا جُلَّ وقتهم فيه لها، فهم قد أيقنوا أنَّهم في زمن شريف، ومكان مبارك، ومتلَبسين بعبادة عظيمة، فاجتمع لهم (شرف الزمان، والمكان، والحال) وبه تُضاعفُ الحسنات، فاغتنموا ذلك أحسن اغتنام.

فلذا كان شأنُ الحاجِّ الموفَّقِ أنَّهُ لا يُضيِّعُ من حجِّهِ وَقتًا في غيرِ طاعة أو قُربة، خصوصًا أَنَّ السَّوادَ الأَعظم منهم قد لا يَحُجُّ إلا حَجَّةً واحدةً نَظرًا لكثرة الحُجَّاجِ في هذه الأزمنة، ووجوبه في أصل الشرع مرة في العُمر.

والحجُّ أَيَّامٌ معدودات، ولو حسبه الحاجُّ لوجده ساعاتٍ سُرعانَ ما تنقضي، وأغلب الحُجَّاجِ اليوم في راحة، وشِبهِ تَفَرُّغٍ

للعبـادة، فالموفَّـق منهـم مـن انشـغل بالطاعـات، واغتنـم هذه الفرصـة لإصلاح قلبه وحالـه، وجعل الحجَّ مُنطَلَقًـا للعودة إلى الله إن كان بعيدًا عن ربه، ومُوَفِّيًا حَقَّهُ إنْ كان مُقَصِّرًا فيه، وَسَـبيلًا لزيادة الإيمان، وحُـبِّ الطاعات والإقبال عليها، مع العزم والنية الصادقة أن يجعل بقية عمره لله وفي سبيل مرضاته.

ولقد سَعَيتُ في هذا الكِتابِ أَن أُظهِرَ شيئًا من حِكَم العبادات، إذْ لا يُمكِـن لأَحَـدٍ الإحاطة بها، وسَـعَيتُ أن يَعِيـشَ الحاجُّ وهو يقرأ ما كُتب مع كل مَنسَكٍ مِن مناسكه عيشة التعبّد لله، إذ الهدف الأعظـم هو أن يُـؤدي الحـاجُّ حجَّه بقلـب حاضر، مسـتحضرًا مقاصده، وروح العبادة فيه؛ لينتفع منه وبه الانتفاع الأعظم.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾[1].

❋❋❋

(١) [سورة هود: آية ٨٨]

الحجُّ فضائل وآثار

هديُ القرآن والسُـنّة ذِكرُ فضائل الأعمال الصالحة وثمراتها؛ لِيُقبـل عليهـا العبـادُ رغبـةً في إدراك تلـك الفضائـل والفوز بهذه الثمـرات، والحجُّ كغيره مـن العبادات ذكـر الله تعالى له فضائل كثيـرة، يعـرفُ من تأمّلهـا حق التأمّل أنَّـه لا مثيل لهـا، ولذا تابع العُبّـاد بين الحجّ والعمرة، وحرصوا على الإكثار منه رغبةً في نيل هذه الأجور.

وقبـل ذكر الفضائـل لا بد مـن التنويه بركنيـة فريضة الحج، ووجوبه، وخطورة تركه، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة، ولكنّه ممَّا يُذكَّر به لتهاون كثير من المسـلمين فيه، فتجد فيهم مَن قد وجب عليه الحجّ، وتيسّـر له بما منّ الله عليه من مال وصحة، ومـع ذا يفـرّط فيه إمّا بتركـه بالكليّة، وإما بتأخيـره من غير عذر، وهذا فعل خطير يُعرّض صاحبه للعقوبة، والآثار في ذلك كثيرة.

فالحـاجُّ يُؤدي فريضة الحـجّ لأنّ الله أوجبه عليـه، ورغبة في إدراك مـا جاء فيه من فضل عظيم، واسـتحضاره كفيل بأن يُوقعه صاحبُه -بإذن الله- على أحسن موقع.

والمستحْضِر لفضائل الحجّ أكمل أداءً له من غيره، وأشد إتقانًا له، وأحرص على إكماله؛ لأنَّه يرى فضائل على مثلها يُحرص، ويعلم يقينًا أنّ الحجّاج والمعتمرين في نسكهم تتباين أحوالهم، وأن مقدار ثوابهم يكون بحسب إخلاصهم وإتقانهم لهذه العبادة الشريفة.

والمتأمّل في أحاديث الحجّ الدالة على فضائله - والتي سيأتي ذكرُ بعضها في موضعه- يرى فيها فضلًا ظاهرًا من الكريم -سبحانه- ومنّة جليلة من الرحمن عَزَّوَجَلَّ، فإليك طائفةً منها لعلها تجعلك مُعظِّمًا لهذا النُسك، مستصحبًا ثوابه، مؤديًا إياه على أكمل حال.

فمن فضائله: أنّه سببٌ عظيمٌ من أسباب مغفرة الخطايا ومحو الآثام، وإقالة العثرات وتكفير السيئات، وهذا عينُ ما يطلبه كلُّ مؤمن ومؤمنة، ويسأله كلُّ صادق مشفق من تَبِعات الذنوب وآثارها وعقوبتها، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في فضل الحجّ: **"من حجَّ فلم يَرفُثْ ولم يَفْسُقْ، رجَع من ذنوبه كيوم ولدتْهُ أمُّه"**(١)،

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة والترمذي

إلا أنــه قال: "غُفِرَ له ما تقدّم مــن ذنبه" واختار ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أنّ المغفرة شاملة لغُفْرَان الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ، وإليه ذهب القرطبي والقاضي عياض).

وإليه أيضًا مال الشيخ ابنُ عثيمين، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ظاهر الحديث أنّ الحج يُكفّر الكبائر، وليس لنا أن نعدو الظاهر إلا بدليل)[1].

وحتى من قال بعدم تكفير الكبائر إلا أنّه يرى أن لعبادة الحجّ إذا أدّيــت علــى أكمــل وجه أثرهــا في صاحبها، قال ابــن العربي: (وهــذه الطاعات ربما أثّــرت في القلب، فأورثت توبــة تُكفّر كل خطيئة)[2].

فعبــادةٌ تُكفّــر جميــع الذنوب والمعاصــي جديرةٌ بــأن تُؤدَّى علــى أكمل وجّه؛ لأنّ هذا التكفير مشــروطٌ بالبعد عن المعاصي والمحرمات كما هو ظاهر الحديث.

ومــن فضائل الحــجّ: أنّ الله لم يرضَ للحــاجِّ المؤدّي لحجّه على أكمل وجهٍ جزاءً لحجِّه إلا الجنّة، والجنّةُ هي غاية كلُّ مؤمن

(١) [فتاوى ابن عثيمين: ٢١/ ٤٠]

(٢) [فيض القدير: ٢: ١٥١٥]

ومؤمنة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "العمرةُ إلى العمرةِ كفّارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنة"(١).

وقال القرطبي في بيان الحجّ المبرور: (أنّه الحجّ الذي وفّيت أحكامه، ووقع موقعًا لما طُلب من المكلف على الوجه الأكمل)(٢).

ومن فضائل الحجِّ: أنّ خطوات صاحبه كلها في ميزان حسناته، فبكل خطوة يخطوها الحاجُّ رفع درجة أو محو خطيئة، وهذا فضلٌ عظيم لا يمكن لأحدٍ إحصاؤه، يقول رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما ترفعُ إبِلُ الحاجِّ رِجْلاً ولا تضعُ يَدًا، إلا كَتَبَ الله له بها حسنةً أو محا عنه سيئةً، أو رفعه بها درجةً"(٣).

والحديث داخلٌ فيه -إن شاء الله- كل مركوب يحمل الحاجّ، فلعل بعض الحُجّاجُّ يخطو مئات الآلاف من الخطوات في سيره للحجِّ، وكلها -بإذن الله- في موازين حسناته.

---

(١) رواه البخاريُّ ومسلم.

(٢) [فتح الباري: ٣/ ٤٣٢]

(٣) رواه البيهقي، وابن حبان، وهو حديثٌ حسن.

ومن فضائله: أنّك -أيّها الحاجّ- واحد من الوفد الكريم الذين سيُكرمهم الله عند قدومهم إلى بيته بإجابة دعواتهم، فاستبشر بهذه الكرامة التي خصّك اللهُ بها، يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الحجاجُ والعُمَّارُ وفدُ اللهِ؛ دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم"**(١).

فهم أجابوه لمّا دعاهم، وسيُكرمهم بالعطاء حين يسألونه ويطلبونه.

(ويرجع هذا الفضل إلى كون البيت منسوبًا إلى الله سبحانه وتعالى، فهو بيتُ الله في الأرض، والوافد عليه الزائر له، إنما هو في حقيقة الأمر وافدٌ على الله تعالى زائرٌ له، وهو سبحانه أكرم مَزُورٍ وأعظم مسؤول، بابُه لا يُغلق، وقاصِدُه لا يندم؛ فلا يكفيه سبحانه الإكرام لحظة دخول الزائر بيته، وإنما بمجرَّد خروجه من مكانه الذي هو فيه، قاصدًا البيت العتيق، أصبح في ضيافة الله تعالى، فكان الطريق إلى الله تعالى رَفْعًا لدرجاته وحَطًّا لخطاياه، وأُجِّلت الجائزة الكبرى والمِنْحَة العظمى إلى رحلة العودة، فلا يعود من زيارته ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلاَّ قد رجع كما ولدته أُمُّه)

(١) رواه البزار، ورواته ثقات، وهو حديثٌ حسن.

واقرأ معي -أيّها الحاجُّ الموفق- هذا الحديث العظيم في معناه، الجليل في بشائره لكل حاجٍّ قصد وجهَ اللهِ في حجّه، وسيُنبئك عن فضل الله على عباده المؤدِّين لهذه العبادة، وكرامته لهذا الوفد المبارك، الذين تركوا الأهل والأوطان يبتغون فضل الله وكرامته، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (كنت جالساً مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجد مِنى، فأَتاه رجلٌ من الأنصارِ ورجل من ثَقيف، فسلما، ثم قالا: يا رسول الله، جئنا نسألك. فقال: "إنْ شِئْتُما أخبَرْتُكما بما جِئْتُما تسألاني عنه فعلْتُ، وإنْ شِئْتُما أنْ أُمْسِكَ وتسألاني فعلْتُ، فقالا: أَخبِرْنا يا رسولَ الله، فقال الثَّقَفيُّ للأنصاريِّ: سَلْ، فقال: جِئْتَني تسألُني عن مَخْرَجكَ مِن بَيتِكَ تَؤُمُّ البيتَ الحرامَ، وما لكَ فيه، وعن ركعتَيْكَ بعدَ الطَّوافِ وما لكَ فيهما، وعن طوافِكَ بينَ الصَّفا والمروةِ وما لكَ فيه، وعن وقوفِكَ عَشِيَّةَ عرفةَ وما لكَ فيه، وعن رميكَ الجِمار وما لكَ فيه، وعن نَحْرِكَ وما لكَ فيه، مع الإفاضةِ، فقال: والذي بعثَكَ بالحقِّ، لَعَنْ هذا جِئْتُ أسألُكَ، قال: فإنَّكَ إذا خرَجْتَ مِن بَيتِكَ تَؤُمُّ البيتَ الحرامَ، لا تضَعُ ناقتُكَ خُفًّا، ولا تَرْفعُهُ، إلَّا كَتَبَ اللهُ لكَ به حسنةً، ومَحَا عنكَ خطيئةً،

وأمَّا ركعتاكَ بعدَ الطَّوافِ؛ كعِتْقِ رَقَبةٍ من بني إسماعيلَ، وأمَّا طوافُكَ بالصَّفا والمروةِ؛ كعِتْقِ سبعينَ رقبةً، وأمَّا وقوفُكَ عَشِيَّةَ عرفةَ؛ فإنَّ اللهَ يَهبطُ إلى سماءِ الدُّنيا فيُباهي بكُمُ الملائكةَ، يقولُ: عِبادي جاؤُوني شُعْثًا من كلِّ فَجٍّ عميقٍ يرجون رحْمتي، فلو كانتْ ذُنوبُكم كعددِ الرَّملِ، أو كقَطْرِ المطرِ، أو كزَبَدِ البحرِ، لغَفَرْتُها، أَفيضوا عِبادي مغفورًا لكم، ولِمَن شَفَعْتم له، وأمَّا رَمْيُكَ الجمار فلكَ بكلِّ حصاةٍ رَمَيْتَها تكفيرُ كبيرةٍ مِنَ المُوبقاتِ، وأمَّا نَحْرُكَ؛ فمَدْخورٌ لكَ عندَ ربِّكَ، وأمَّا حِلاقُكَ رأسَكَ؛ فلكَ بكلِّ شَعرةٍ حَلَقْتَها حسنةٌ، وتُمْحى عنكَ بها خطيئةٌ، وأمَّا طَوافُكَ بالبيتِ بعدَ ذلكَ؛ فإنَّكَ تَطوفُ ولا ذَنْبَ لكَ، يأتي مَلَكٌ حتَّى يضَعَ يدَيْهِ بينَ كَتِفَيْكَ، فيقولُ: اعمَلْ فيما تَستَقبِلُ؛ فقد غُفِرَ لكَ ما مَضى"[1].

وهذا حديث لو أفرد في بيان فضله مصنف لمَا كفاه، فكم فيه من فضائل لكل عمل من أعمال الحاجّ، وكم فيه من عطايا تفضّل بها ربنا الرحمن.

ومن فضائل الحجّ: أنّ من مات فيه كُتِبَ له أجْرُ الحاجِّ إلى يومِ

(١) رواه الطبراني، والبزّار، واللفظ له، وهو حديثٌ حسن.

القيامـةِ، وهذا -كما ترى- فضلٌ لا مثيل له، وعلى مثله يُحرص، فعن أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَن خرَجَ حاجًّا فمات، كُتِبَ له أجْرُ الحاجِّ إلى يومِ القيامةِ، ومَن خرَجَ مُعتمـرًا فمات، كُتِبَ لـه أجْرُ المُعتمرِ إلى يـومِ القيامةِ، ومَن خرَجَ غازيًا في سَبيلِ اللهِ فمات، كُتِبَ له أجْرُ الغازي إلى يومِ القيامةِ"(١).

قال أهل العلم: ومسـألة الثواب على العمل الصالح أمره إلى الله تعالى، فلا يدخله قياس.

وقد جاء الحـثّ على المداومة على الحـجّ والعمرة، وبيّنت الأحاديـث فضائلهـا يقـول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "تابعـوا بيـنَ الحجِّ والعمـرة، فإنَّ متابعةً بينهما تنفي الفقـرَ والذنوبَ كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديدِ"(٢).

وقـال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "تابعـوا بين الحـجِّ والعمـرةِ، فإنَّهما يَنفيـان الفقـرَ والذنوبَ كما يَنفـي الكيرُ خَبَثَ الحديـدِ والذهبِ والفضةِ، وليس للحَجَّةِ المبرورةِ ثوابٌ إلا الجنةَ"(٣).

(١) رواه أبو يعلى، وقال الألباني صحيح لغيره.

(٢) وهو في صحيح النسائي.

(٣) رواه الترمذي وابن خزيمة وابن حبان في "صحيحيهما"، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

فهنيئًا لنفس شغفت حبًّا في الحجّ والعمرة، فتابعت بينهما بحيث لا تكاد تنقطع عنهما رغبةً في أجرهما، وحيازة فضائلهما.

وفي هذا الحديث: مشروعية المتابعة بين الحجّ والعمرة، لا كما يقول من قلّ فقهه في هذه العبادة، ويضع أعذارًا وحجّجًا واهية في المتابعة بين الحجّ والعمرة، واعتراضًا لمن يُتابع بينهما، وقد يسّر الله له السبل والأسباب.

ومن فضائل الحجّ ما جاء في حديث ماعز التميمي قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أفضَلُ الأعمالِ الإيمانُ باللهِ وَحدَه، ثمَّ الجهادُ، ثمَّ حَجَّةٌ بَرَّةٌ تفضلُ سائرَ الأعمالِ كما بينَ مطلعِ الشَّمسِ إلى مغرِبِها"(١).

وقوله: "ثمَّ حَجَّةٌ بَرَّةٌ تفضلُ سائرَ الأعمالِ كما بينَ مطلعِ الشَّمسِ إلى مغرِبِها" قال المناوي: (مبالغةً في سموها على جميع أعمال البَرّ)(٢).

(١) وهو في صحيح الجامع.

(٢) فيض القدير: [٢:١٥١٠]

ففيه الإشارة إلى فضلها على كثير من الأعمال، (ولذا لمّا سُئل بعض السلف عن المفاضلة بين الحج وبين الأعمال الصالحة، أجاب السائل:

أين أنت من الطواف والسعي!؟

أين أنت من الوقوف في عرفة!؟

أين أنت من المبيت بمزدلفة!؟

أين أنت من رمي الجِمار!؟)

والمعنى أنّك لا يمكن أن تُدرك فضل هذه الأعمال الصالحة إلا في الحجِّ، فليست ثَمَّ عبادةٌ فيها الوقوف بعرفة إلا الحجّ، وليس مبيت هو عبادةً إلا في مزدلفة، وليس هناك عبادة تُرمى فيها الجِمار إلا عبادة الحجّ، فخُصّ وفضّل عن غيره بمثل هذه العبادات التي لا تفعل إلا فيه.

ولمّا كان كثيرون من أفراد الأمّة يعجزون عن الجهاد في سبيل الله -والذي هو ذروة سنام الإسلام، وأجوره عظيمة جدًا، ولكنّه يحتاج إلى قوة وشوكة- جعل الله لهم من الأعمال ما يُعوّضهم

عن ذلك، بل ربما وصل إلى ثوابه، ففي حديث الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إنِّي جَبانٌ وإنِّي ضَعِيفٌ. فقال: **"هَلُمَّ إلى جِهادٍ لا شَوْكَةَ فِيه؛ الحَجُّ"**(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت: يا رسول الله، نُرى الجهادَ أفضلَ الأعمال، أَفلا نجاهد؟! فقال: **"لَكُنَّ أفضل الجهادِ؛ حجٌّ مبرور"**(٢).

فهذه بعضُ الفضائل للحجّ تُنبئ الحاج عن عُلّو منزلته وكثرة أجوره، وتُرَغِّبُهُ فيه، وتجعلهُ يسعى جهده في إيقاعه على أكمل وجهٍ وأتمِّهِ رغبةً في إدراكها.

❋❋❋

(١) وهو في صحيح الترغيب.

(٢) رواه البخاري.

الحج والتوحيد، وإخلاص العمل لله فيه

تأمّل في آيات الحج وأحاديثه، تجدها كلها تُشير إلى التوحيد والبعد عن الشرك، وإخلاص العمل لله، وأن يستحضره الحاجُّ في كل نسك من أنساكه وكل شعيرة من شعائره، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾[1].

وقال -سبحانه-: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾[2].

وفي أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإشارة الواضحة إلى ذلك، وستأتي الدلالة على ذلك.

---

(١) [سورة الحج: الآية ٢٦]

(٢) [سورة الحج: الآيات ٢٨-٣١]

وروح العبـادة الإخلاص، ومقصودهـا الأعظم إرادة وجّه الله والـدار الآخـرة، وأي عبـادة تخلو مـن الإخلاص مـردودة على صاحبهـا، وإذا ضعُـف فيهـا ضعُف أثرهـا على صاحبهـا، وقلّ أجرهـا وثوابهـا، والله مطلّعٌ على قلـوب العباد، عليـمٌ بنواياهم، خبيـرٌ بما انطـوت عليهم قلوبهـم، فمراقبةُ الله في هذا الشـأن هي السـبيل الأعظم لتحقيـق الإخلاص، وتذكُّر عظمته واسـتحقاقه لصـرف العبـادة إليـه، كل ذلك مـن أعظم الأسـباب التي تجعل العبد من المخلصين.

ولمّا كانت عبـادةُ الحجِّ ظاهرة للناس، جـاء تذكير الحجّاج بـه، وألا يُلتفتـوا إلى العبـاد، فإنّهم لن ينفعوهم بشـيء، بل يعود العمل وبالًا عليهم.

وإذا تأمّلـتَ حجّـة نبيك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وجـدتَ الإخلاص فيها حاضرًا في كلِّ منسـك من مناسـكها، وكيف لا يكون كذلك وهو سيد المخلِصين؟!

ففـي صحيـح مسـلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال جابـرُ بن عبـدالله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "فأهلَّ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيكَ، إن

الحمدَ والنعمةَ لك والملكَ، لا شريكَ لك"

وقال أنس في وصفه لحجّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (حجَّ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رَحْلٍ رثٍّ وقَطيفةٍ تُساوي أربعةَ دراهمَ أو لا تُساوي ثُمَّ قالَ "اللهمَّ حَجَّةٌ لا رياءَ فيها ولا سُمعةَ")[1].

وكان السلف يخاف أحدُهم من ردّ عمله، ويخشون عدم القبول، يقول ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: (حج عليُّ بنُ الحسين، فلمّا أحرم واستوت به راحلته، اصفرّ لونه وانتفض، ووقعت عليه الرعدة وصار يرتجف، ولم يستطع أن يلبي، فقيل له: لم لا تلبي؟! فقال: أخشى أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك)

وهكذا فإن الحاجَّ يستحضر الإخلاص عند التلبية رجاء قبول العمل وإتمامه.

ومن مظاهر التوحيد والإخلاص في الحجّ أنّ الحاجّ إذا بدأ الطواف قال: (بسم الله والله أكبر)[2].

---

(١) أخرجه ابنُ ماجه.

(٢) قال في نيل الأوطار: سنده صحيح [٥/ ٤٧]

وقال: (اللهم إيمانًا بك -وهو التوحيد والإخلاص- ووفاءً بعهدك، واتِّباعًا لسُنّة نبيك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ)[1].

وهكذا في الطواف يُذكّر الحاجُّ نفسَه بالتوحيد والإخلاص، وإرادة وجّهَ الله في عمله، ويُظهر التضرّع له، ويقصده بالدعاء، ولا يلتفت بقلبه لأحدٍ من الخلق، سواء من حوله أو من غاب عنه من أهل أو صديق؛ ولذا كان البعد عن تصوير مواطن العبادة أسلم للعبد، وأقرب لإخلاصه في عمله.

وتأمّل كيف يرفع إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ القواعد من البيت، ومع كمال إخلاصهما إلا أنّهما يرجوان القبول لعملهما خوفًا من ردّه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[2]. فكيف بمن دونهم من العبّاد؟! فإنهم

(١) [أخرجه الشافعي في كتابه الأم عن ابن جريج ٢/ ١٧٠ باب ما يقال عند استلام الركن]

(٢) [سورة البقرة: الآيات ١٢٦-١٢٨]

أولى بالخوف من ردّ العمل، وأولى برجاء القبول.

فـإذا ما انتهـى من طوافه، وصلـى ركعتين قرأ فيهما بسـورتي الإخـلاص (الكافـرون والإخلاص) يسـتحضر فيهمـا التوحيد وإخلاص العمل لله.

وهكذا في سـعيه يُذكّر نفسه بالتوحيد والإخلاص، وأنّه يبتغي بـه وجّهَ الله والدارَ الآخرة، ولذا فإذا قصد الصفا، ورَقِيَ عليه ذكر شـهادة التوحيد، ففـي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفـة حجّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: **"فبـدأ بالصَّفا فرَقِيَ عليه، حتـى رأى البيتَ، فاسـتقبل القبلـةَ، فوحَّد اللهَ وكبَّـره، وقال: لا إلـهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَه لا شـريكَ له، له المُلْك وله الحَمْدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحده، أنجَزَ وَعْدَه، ونَصَر عبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وَحْدَه، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاثَ مرَّاتٍ..."**

وهكذا يوم عرفة، فإن أعظم ما يُقال فيه شهادة التوحيد، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **" خَيْـرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَـرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ**

الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[1].

وكذلك في مزدلفة يوَحِّد الحجيج ربهم الله ويذكرونه، وكذا يُوحِّدونه ويُكبّرونه عند رمي الجِمار، وعند الذبح يكون الإخلاص والتكبير.

ويبقون في منى أيّام التشريق ذاكرين الله بشهادة التوحيد وغيرها من الأذكار.

فيُوقن الحاجُّ أن أعظم عمل في حجّه ونسكه -بل وفي سائر عبادته- هو إظهار التوحيد، وإرادة وجهَ الله فيه، فهو الحسنةُ العظيمة، وسبيل النجاة الأكبر، وطريق الاطمئنان لمن رام الحياة الطيبة، والسعادة الدائمة، ورفعة الدرجات.

إنّ تقوية التوحيد في القلب أعظم ما ينبغي للحاجّ العناية به ليعود من حجّه وقد قوي به قلبُه واطمأنت به نفسُه، وزادت عنده براهينه، وابتعدت عنه كلُّ شبهة يقذف بها الشيطان، أو يزوّرها أهل الكفر والبهتان.

---

(١) رواه الترمذي.

ومظاهـر التوحيـد ظاهرة في هـذه الجموع التـي أمّت البيت، واستجابت لربها، وانقادت لشريعته، ثم هم يجتمعون على عبادة واحدة، في زمان واحد، ومكان واحد، بهذه الأعداد الهائلة، وبهذه العبـادات التي لا مثيـل لها، فطوافهم وسـعيهم يؤديـه الجميع، ولا يُخِلُّـون بشـيء منه خوفًا من عدم القبـول، ووقوفهم في عرفة في عشـية واحـدة من زمان العـام كله، ومبيتهـم في مزدلفة في ليلة واحـدة فقـط من ليالي السـنة، ورميهم للجِمـار في زمن واحد لا يتعـدّاه واحدٌ منهـم ولا يتجاوزه، فأي عظمة فـوق هذه العظمة، وأي استجابة أعظم من هذه الاستجابة؟!

إنّ مظاهـرَ العبـادة في الحجّ، وقيـام الحُجّاجُّ بهذه الأنسـاك، فيه الإشـارة الجليلـة لإيمانهم بربٍّ واحد، وإلـهٍ واحد، قد آمنوا باطِّلاعه على عباداتهم وأفعالهم، وشهوده عليها وعليهم، ويقينهم بإحاطته، وسـعة سمعه وبصره، فسـبحان من جمع القلوب على تعظيمه وتوحيده.

ويجتمعـون على إيمانهم بعلمه بحوائجهم، ولطْفه بهم، وأنّه يسمع داعيهم، ويُحقّق دعواتهم ومطالبهم، ويرأف بهم.

وفي الحجِّ تظهر وحدانية الله؛ إذ إن النّاسُ قد اجتمعوا بطوعهم وإرادتهم من غير أن يجبرهم أحدٌ على ذلك، ولكن لأنّهم آمنوا بربهم الذي دعاهم إلى بيته، وأمرهم بالحجّ إليه، فاستجابوا له، رجاء ثوابه وإحسانه.

وتظهر وحدانيته تعالى بتصديقهم لموعوده بالثواب والجزاء، فقد آمنوا أنّ الله سيُجازيهم على أعمالهم، فصدّقوا ذلك وأيقنوا به، وتركوا أهليهم وأوطانهم، وأنفقوا أموالهم، فيجتمعون على إيمانهم بسعة ثوابه، وكرمه بإثابتهم، فيرجون إجابة دعواتهم، وحُسن نواله، وأنتَ ترى أنّ الحاجّ لا يُحَصِّلُ ثوابًا معجَّلاً في حجّه، ولكنّه عبدٌ مؤمن بالثواب بعد الموت، والجزاء يوم الحساب.

وفي الحجّ تظهر الذلة والإخبات للحجّاج لربهم، والاستكانة له، وخشوعهم بين يديه، وبكاؤهم عند مناجاته، وتحيّنهم أوقات الإجابة، فيدعون ربهم في طوافهم، وعلى الصفا والمروة، ويعظم رجاؤهم في استجابة الدعاء يوم عرفة، وفي مزدلفة، وعند رمي الجِمار.

إنّها مشـاهد عظيمـة للتوحيد، ومظاهـرة ناصعة للإخلاص، ودلائـل واضحة للإيمـان، وبراهيّن بيّنة لليقين، فلـذا كان الحجّ عنـد الله بمكان، وجاء بفضله من الآثار مالم يأتِ في غيره، وأكرم اللهُ أهلـه، ووعدهـم عليه من الأجور بما لا يـكاد يجتمع إلا فيه، فهنيئًا لأنفسٍ لبّت، وبُشرى لخلقٍ استجابوا لأمر ربهم، ويا سعادة من اصطفاه الله لهذا النُسك الجليل.

❊❊❊

الحجُّ وارتباطه بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام

الحـجُّ عبادةٌ قديمـةٌ منذ الأزل، وهذا يدلُّ على شـرفه، وعلُوِّ منزلتـه، وكثرة أجـره وثوابه، وقد قيـل: أنّ الأنبيـاءَ كلَهم عليهم الصلاة والسلام حجّوا البيت، قال أبو المعالي الجويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقيل: **(ما من نبي إلا وقد حج هذا البيت)**[1].

وقـال ابن عـلان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال ابن إسـحاق: لـم يبعث اللهُ نبيًـا بعـد إبراهيـم إلا حـج، والذي صرح بـه غيره أن مـا من نبي إلا حج)[2].

وعَـنِ ابْنِ أَبِي لَبِيـدٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْـبٍ الْقُرَظِيِّ - أَوْ غَيْرِهِ - قَالَ: **(حَجَّ آدَمُ فَلَقِيَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَقَالُوا برَّ نُسُكُكَ يَا آدَمُ)**[3].

وقـد ذكَـرَ النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهـو المربـي الأوَّل للأُمَّـة والمعلِّم الأول لها- أحوال الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في الحجِّ في مواطن كثيرة.

---

(١) [نهاية المطلب:٤/ ١٢٥]

(٢) [دليل الفالحين:٧/ ٧١]

(٣) [البداية والنهاية:٢/ ٢٩٩].

ذكرهـم في حال الإحرام، وذكرهم في عرفة، وذكرهم في منى؛ كلُّ ذلـك تذكيرًا للحجَّاج وقاصدي بيت الله الحرام بشـرف هذه العبادة، وأنَّ هؤلاء الصفوة من البشر قد أدَّوها، وحرصوا عليها.

وذكْـرُ هذا له مغزى عميق، وثمرة ظاهرة، فشـعور الحاجِّ أنّه متأسٍّ بخير البشر، والمصطفَين مِن عباد الله يجعله فرِحًا مسرورًا بهذا الاصطفاء، ومتشرّفًا بهذا التأسي.

وإحياء هذا التذكّر عند كلِّ شـعيرة من شـعائره يجعله يعيش هذا النسك وهو في غبطة من أمره يتذكّر بها رحمة الله به.

فإذا عزم السـفر للحجِّ تذكَّر أنبياء الله ورسـله -عليهم الصلاة والسـلام- وقد أمّوا هـذا البيت، قاصدين مرضاة الله، مسـتجيبين لأمـره، فهي عبادة جعلها الله للأمم السـابقة ممَّـا يدلُّ على فضلها ومكانتها، وحبِّ الله لها، ورضاه عن أهلها، ووعدهم بالإكرام.

وإذا أحرم تذكَّر إحرام الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ لربهم إيذانًا بدخولهم هذا النسك المبارك.

وإذا لبّى تذكَّر تلبية موسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهم يُلبُّون لربهم، ويُعلنون الاستجابة لـه، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: **كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين مكة والمدينة، فمررنا بوادٍ، فقال: "أيُّ وادٍ هذا؟ " قالوا: وادي الأزرق. قال: "كأني أنظرُ إلى موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضعًا إصبعيه في أذنيه له جُؤارٌ إلى الله بالتلبية، مارًّا بهذا الوادي"**

قال: ثمّ سرنا حتى أتينا على ثَنيَّةٍ، فقال: "أَيُّ ثَنيَّةٍ هذه؟ " قالوا: ثنية (هَرْشى) أو (لَفْتٌ). قال: "كأني أَنظرُ إلى يونُسَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ناقةٍ حمراءَ عليه جُبَّةُ صوفٍ وخِطامُ ناقتِه خُلْبَةٌ، مارًّا بهذا الوادي مُلَبِّيًا"(١).

وانظر إلى تواضعهم لربهم في هذا النسك، فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لقد مرّ بـ (الرَّوحاءِ) سبعون نبيًّا، فيهم نبيُّ اللهِ موسى، حفاةً عليهم العَبَاءُ، يَؤُمُّونَ بَيتَ اللهِ العتيق"**(٢).

---

(١) رواه ابن ماجه وابن خزيمة وصححه الألباني.

(٢) رواه أبو يعلى والطبراني، ولا بأس بإسناده.

وإذا بلـغ مكة وبدأ بالطـواف حول البيت، اسـتحضر هؤلاء الصفـوةَ مِنَ البشـر، ومَنْ بعدهم مِـنْ خيار الخلق مـن الصحابة -رضـوان الله عليهم- والصالحين من عباد الله وقد طافوا حوله، ومشـت أقدامهـم في هذا المـكان المبارك، وارتفعـت دعواتهم، وامتـلأت قلوبُهـم تعظيمًـا لربهـم، وتوجّهتَ له يرجـون فضله، ويأملون إحسانه، ويخافون عذابه، ويسألونه رضاه عنهم.

وهكذا في السـعي يتذكر سعي أمّ إسـماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ **وكيف سـعت طلبًا للماء،** فعوَّض الله صبرهـا وإيمانها بماء زمزم، الذي جعلـه الله آيـة من آياته الخالـدة، وفيه تذكرة إلـى أنَّ من أطاع الله وتـوكل عليـه واعتصم بـه، فإنه لا يُضَيِّعُـهُ، بل يرفع ذكـره؛ ولذا لمَّـا قالت هاجـر لإبراهيم: (آلله أمرك بهذا)؟ قـال: (نعم) قالت: (اذهب فلن يضيّعنا)، فرفع الله ذكرها، وصار الناس يسعون مثلها وفيهم الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

يقـول ابنُ عبـاس: وجعلَـتْ أمُّ إسـماعيلَ تُرْضِعُ إسـماعيلَ وتَشْرَبُ من ذلك الماءِ، حتى إذا نَفِد ما في السِّقاءِ عَطِشَت وعَطِشَ ابنُها، وجعلت تنظرُ إليه يتلوى -أو قال: يتلبَّطُ- فانطلقت كراهيةَ

أن تنظُرَ إليه، فوجَدَت الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأرضِ يليها، فقامت عليه، ثم استقبلَتِ الواديَ تنظُرُ: هل ترى أحدًا؟، فلم تَرَ أحدًا، فهَبَطَت مِنَ الصَّفا حتى إذا بلغَتِ الواديَ، رفعت طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعت سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ، حتى إذا جاوزت الواديَ، ثم أتت المروةَ، فقامت عليها، ونظَرَت هل ترى أحدًا؟ فلم تَرَ أحدًا، ففعلت ذلك سبْعَ مرَّاتٍ، قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"فذلك سَعْيُ النَّاسِ بينهما"**(١).

ويتذكر إذا سعى سعي نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُعظِّمًا ربه مستجيبًا له، فيقف على الصفا داعيًا ربه، ذاكره بكلمة التوحيد، متذكرًا فضل الله عليه بانتصار دينه، وخذلان الكفر وأهله، فيومٌ من الأيّام صعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصفا ونادى في قريش، فاجتمعوا له فحذَّرَهم وأنذرهم عذاب الله، وأنَّهُ رسولُ الله إليهم فما كان من عمّهِ أبي لهب إلاَّ أن ردَّ عليه ردًّا جافيًا قائلًا له: (تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟!) فنزل ولم ينصره أحدٌ، واليوم يصعد على الصفا، وبين يديه مئة ألف مسلم، ووراءهم أضعافهم كلهم مسلمون مؤمنون

(١) رواه البخاري.

بربهم، فيُهلِّلُ ويُكبِّرُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تحميدًا وتكبيرًا لله الذي نصر عبدَه، وأعزّ جندَه، وهزم الأحزاب وحده، وينتشر الإسلام، وتتم النعمة، ويُذَلُّ الكفرُ والكافرون.

يتذكَّر المؤمنُ هذا وهو واقفٌ على الصفا والمروة، ويُهلّلُ ويُكبّر ربه، ويدعوه ويسأله.

إنّ من شعر بهذا الشعور لحريٌ بأن يكون قلبُه حاضرًا في وقوفه ودعائه ومناجاته لربه وهو في هذا المقام.

وهكذا إذا وقف في عرفة يتذكَّر وقوفهم في هذه الأماكن المباركة، يتعبّدون لله بالوقوف، ويسألونه رضاه ورحمته وفضله، ولذا لمَّا كان يوم عرفة ذكَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بهذا، وأنَّهم على إرث أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ففي الحديث يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **"قِفُوا على مَشاعِرِكم؛ فإنكم على إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أبيكم إبراهيمَ صلواتُ اللهِ عليه"**(١).

وسيأتي معنا في وقفة عرفة.

(١) وهو في صحيح أبي داود.

وإذا بات في مزدلفة تذكر مبيت الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والصالحين من بعدهم، الذين باتوا تعبُّدًا لربهم في هذا المكان، وذكروا ربهم فيه، خاشعين خاضعين بين يدي ربهم ومولاهم، وتذكَّر حالَ إمامهم محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ففي حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "حتَّى أتى المُزْدَلِفةَ فصَلَّى بها المَغْرِبَ والعِشاءَ بأذانٍ واحدٍ وإقامتينِ، ولم يُسَبِّحْ بينهما شيئًا، ثم اضطجَعَ حتى طلَعَ الفَجْرُ، وصلَّى الفَجْرَ حين تَبَيَّنَ له الصبحُ، بأذانٍ وإقامةٍ، ثم رَكِبَ حتى أتى المشعَرَ الحرامَ، فاستقبَلَ القبلةَ، فدعا اللهَ تعالى وكبَّرَه وهلَّلَه، فلم يَزَلْ واقفًا حتى أسفَرَ جِدًّا، فدفع قبل أن تطلُعَ الشَّمْسُ"(١).

فإذا قصد مِنًى لرمي الجمار، تذكّر أنبياء الله ورسله وهم يرمونها، جاء عن ابنِ عباس رفعه إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لما أتى إبراهيمُ خليلُ الله المناسكَ عَرَضَ له الشيطانُ عندَ جمرةِ العقبةِ، فرماه بسبع حصياتٍ حتى ساخَ في الأرض، ثم عرضَ له عندَ الجمرةِ الثانيةِ، فرمَاه بسبع حصياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ، ثم عرض له عند الجمرةِ الثالثةِ، فرماه بسبع حصيات

(١) رواه مسلم.

حتى ساخ في الأرض" قال ابن عباس: (الشيطانَ ترجمون، وملةَ أَبيكم إبراهيم تتبعون)[١].

فالحُجّاج من هذه الأمّة متبعون في رميهم هدي أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأوّل من اقتفى هذا الأثر إمامهم وسيدهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي رمى هذه الجمرات ووقف عندها داعيًا ربه، سائلاً الفضل منه، معترفًا بمنته عليه، وقد أتمَّ عليه نعمته بإكمال رسالته.

وإذا بقي في مِنى أيَّام التشريق وبجواره مسجد الخَيف، تذكَّر الأنبياء والمرسلين -عليهم الصلاة والسلام- وقد قصدوا هذا المكان وصَلَّوا فيه، فأيقن أنَّ هذا المسجد عتيق، وأنّ هذا الموطن شريف، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "صَلَّى في مسجدِ الخيف سبعون نبيًّا منهم موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأَنّي أَنظُرُ إليه وعليه عباءتان قَطَوَانِيَّتان وهو مُحرمٌ، على بعيرٍ من إبل شنوءة، مخطوم بخطام ليف، له ضفيرتان"[٢].

(١) رواه ابن خزيمة في "صحيحه"، والحاكم، واللفظ له، وقال: "صحيح على شرطهما".
(٢) رواه الطبراني في "الأوسط" وإسناده حسن.

إنّ تذكّر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في رحلة الحجِّ يُشعر الحاجَّ بالفخر والاعتزاز بالانتساب لهؤلاء الصفوة من الخلق، والتأسي بهم، وهذا جانب من جوانب العظمة في رحلة الحاجِّ إلى بيت الله الحرام.

❊❊❊

معرفة شرف الزمان والمكان

لا شك أنّ الحاجَّ الراغب بإتقان حجّه، وإيقاعه على أكمل وجه، يسعى جهده للحرص على كلِّ سبب يُؤدي إلى أداء حجّه على أحسن حال، ولعل من هذه الأسباب: التعرّف على فضله، وفضل كل نسك فيه، -وقد مرّ معنا ذلك-.

وكذا فضيلة الزمان والمكان، وهذه المعرفة تجعل الحاجّ يُعظّم الزمان، ويُجلّ المكان، وتكون رحلته إلى مكة مليئة بالتعظيم، والحبِّ والشوق، وتُقبل النفس على شعائر الحجّ بانشراح صدر.

أولًا: شرف الزمان.

فممّا ينبغي على الحاجّ استحضاره، وهو في حجّه: شرف الزمان الذي هو فيه.

فمن رحمة الله وفضله وإحسانه لعباده أن جعل هذا الحجّ في أشرف الأزمنة في العام، فوقوعه يكون في خير أيّام الدنيا (العشر الأوائل من ذي الحجة) وبعده أيّام التشريق، وهي أعظم الأيّام عند الله.

ولقد أقسم الله بهذه العشر الأوائل في كتابه -تنويهًا بها- وهي التي يقع فيها جلّ أعمال الحجّ، فقال -سبحانه-: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝٢﴾[1].

وفي هذه العشر (طواف القدوم، وسعي الحجّ للقارن والمفرد، وطواف وسعي العمرة للمتمتّع، وفيه يوم التروية، ويوم عرفة، وليلة مزدلفة ويوم النحر) فهي تقع في أعظم الأيّام عند الله.

ونوّه بذكر أيّام التشريق بقوله: ﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٠٣﴾[2].

فاستحضار شرف الزمان، واستصحابه طيلة أيّام الحجّ من أسباب الزيادة في العمل الصالح، فالحاجُّ الموفق من جعل هذا الأمر منه على بال، فاغتَنَم كلّ ساعة منه، وبادر كلّ لحظة، وسارع في كل وقت منه لاكتساب قربة فيه -خصوصًا وهو مُحرم- فهي الحالة التي يعظم فيه الأجر -أيضًا-.

---

(١) [سورة الفجر: الآيات ١-٢]

(٢) [سورة البقرة: آية ٢٠٣]

فلـذا نُقل عن السـلف الصالح العجب العُجـاب في اغتنامهم حجّهم في العبادة.

ثانيًا: شرف المكان.

لقـد فاضل اللهُ بين الأماكن والأزمنة، وهذا محضُ اختيار الله وحده لا يشاركه فيه مُشارِك، وبيّن هذا لعباده ليعتنوا به، ويهتموا له، فينتفعوا بهذه المعرفة.

ومـن الأماكن الفاضلـة التي فضّلها، بل أجلّ مـا فضّل: مكة -حرسها الله-؛

ففضّلها على سـائر البلدان، وجعل لها المكانة العالية عنده، وفي نفـوس المؤمنين، وبيانًا لهذا التفضيل، وتلك المكانة، جعل لهـا أسـماء كثيرة، فهي مكة، وبكـة، وأمُّ القـرى، والبلدُ الحرام، والبلـدُ الأمين، والبيتُ العتيق، والبيتُ الحـرام، والقادسُ؛ لِأَنَّهَا تُطَهِّرُ مِنَ الذنوب، وَالْمُقَدَّسَةَ، وغير ذلك من الأسماء.

ومِنْ شرفها أنّ الله جعل بيته فيها، يتوجّه إليه المسلمون كل يوم خمس مرات، وأقسم بها في غير ما موطن من كتابه في آيات تُتلى إلى يوم القيامة ليعلم العباد فضلها ومكانتها وحرمتها، قال -سبحانه-:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ (١).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ (٢)

وجاء ذكرها في مواطن كثيرة من كتاب الله المجيد.

وجعلها مولد خليله محمد ﷺ، ومنطلق الرسالة، وأوّل مكان نزل جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بكتاب الله على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان فيها، وكانت تجمع خيار العباد بعد النبين -الصحابة الكرام-.

وأريد منك -أيّها القارئُ الكريم- إذا كنت في مكة أن تسترجع ذكريات بداية البعثة، ونزول الوحي فيها خلال عشر سنوات، وصبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وإخفاءهم الدعوة، وجهرهم بها، وما لقوه من أذى أهلها الكفّار، وحتى تعيش بوجدانك في هذا البلد، تذكّر وأنت تقرأ آيات القرآن أو كنت تسمعها أنّها نزلت في هذا المكان الذي أنت فيه الآن، تذكّر عندما سأل الكفّارُ النبيَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه، فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣

(١) [سورة التين: الآيات ١-٣]

(٢) [سورة البلد: الآيات ١-٢]

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[1] وأنّها نزلت هنا في مكة.

وتذكّر وأنت تقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾[2] أنّ هذه الآيات أجاب بها النبيُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السفهاء من كفّار مكة عندما طلبوا منه أن يعبد آلهتهم عامًا، ويعبدون الله عامًا، فكان هذا الجواب المفصلي في هذه المسألة، وغيرها من الآيات التي نزلت في مكة.

إنّ استحضار مكانة مكة لقاصدها ممّا يزيد الزائر تعظيمًا لها، ويقينًا برفعة شأنها، وقدسيتها، وجلالة قدرها، وتقديرًا لمنزلتها.

ومكةُ بلدٌ مبارك بمنطوق آي القرآن، يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[3].

وقوله: ﴿بِبَكَّةَ﴾ قيل في معناها: أنّ النَّاسَ يَتَبَاكّون فِيهَا، أَيْ: يَزْدَحِمُونَ، وقيل: غير ذلك.

---

(١) سورة الإخلاص.

(٢) سورة الكافرون.

(٣) [سورة آل عمران: آية ٩٦]

وقوله: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: ذا بركة، فالبركةُ محيطةٌ بها، فمن بركتها أنّ الله جعلها بلدًا آمنًا يأمنُ الناس فيه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ومن بركتها أنّ الله جعل الطعام والخيرات تأتي إليها من كل مكان، فمع أنّ مكة ليست بأرض زرعٍ إلا أنّ الثمرات لا تنقطع عنها، ومن بركاتها ما جعله الله فيها من ماء زمزم، فهي عينٌ جارية من آلاف السنين، لم تنضب أو ينقص ماؤها، وهذه -وغيرها- بركات حسية.

أمّا البركات الشرعية -وهي الأعظم، والأشرف، والأنفع للمؤمن- ما جعله اللهُ من مضاعفة أجر الصلوات فيها، فالصلاةُ في الحرم بمئة ألف صلاة، وهذا لا يوجد له مثيلٌ أبدًا في المضاعفة، بل حتى الصلاة في مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كانت بألف صلاة إلا أنّ البوْن بين المضاعفة شاسعًا -كما ترى- فلذا حريٌّ أن يجعل العبدُ لنفسه أزمنة يبقى فيها في مكة اغتنامًا لهذا الأجر العظيم، وأن لا ينقطع عنها قدْر استطاعته، وكثيرٌ من الأخيار يتعاهدون زيارتها، ولا يُطيلون الانقطاع عنها، اغتنامًا لهذا الفضل الكبير.

ومـن بركة مكة ما جعلها من عبـادات لا تكون إلا فيها، ففيها عبادة الطواف والسعي، وهذا الطواف يكون تارة في الحجِّ، وتارة في العمرة، وتارةً تطوّعًا.

ومـن بركتهـا ما يُحـطُّ عندها مـن الخطايـا والآثـام ومغفرة الذنوب، وغير ذلك من البركة التي لا حصر لها.

إنّ اسـتقبال عبـادة الحـجّ بهـذه المعرفـة لجديرٌ بـأن يجعل صاحبهـا يؤديهـا على أكمـل وجه، وقـارن بين رجليـن أحدُهما أتـى مكة وهو مُعظّمٌ للزمان والمـكان، فتجده خائفًا وجلًا من أن يرتكـب محذورًا، أو يتجاوز حدًا، متحرّزًا من الذنوب، خائفًا من تبِعـات الخطيئات، فتراه حافظًا بصره وسـمعه، بـل وقلبه من أن ينطوي على خطيئة أو ذنب يُبغضه الله، وترى السكينة ظاهرة على جوارحه، والخوف يسـكن قلبه، والمراقبة لربه تصحبه طيلة أدائه شعائر حجّه.

إنّ هذا القسـم من الحجيج سـيعودون -بـإذن الله- بحجّ قد هذّب سلوكهم، وأصلح أحوالهم، وازداد معه الإيمان في قلوبهم.

وبالمقابل تأمّل حال من يأتي مكة، فلا يُراعي لها حُرمة، ولا يرفع رأسًا بقداسة مكان، أوْ شرف زمان، ولا تجده متورّعًا عن ذنب، أوْ متحرّزًا من معصية، فيُطلق لبصره العنان لينظر في النساء، ولا يحفظ سمعه عمّا حرّم الله من أغاني وموسيقى ومقاطع لا يحلّ له النظر إليها ومشاهدتها.

ولا يتورّع عن غيبة أو نميمة أو استهزاء ونحو ذلك ممّا حرّمه، ويؤثر على حجّه، فيخرج منه بأثر ضعيف، ولذا كان من عجائب بعض الحُجّاج -وهم قلة ولله الحمد- أن تجد بعضهم يُجاهر بشرب الدُخان وهو في إحرامه، بل ربما على صعيد عرفات، أو في ليلة مزدلفة.

إنّ مراعاة حرمات الله من تقوى القلوب، والحجّ فرصة لكسبها، فيكون فيه العبد تقيًّا، خائفًا، وجِلًا من ردّ عمله، أو نقص فرضه، وفوات الثواب الكامل عليه.

استحضر أنّ الفضل المترّتب على الحجِّ له قيود قد جاءت بها الأحاديث -وهو: بِرُّ الحجّ، والبعدُ عن المحرّمات- قال

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "مَن حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"(١).

فانظر لهذه القيود (فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ) فالبعد عن الذنوب أساسًا لنيل هذا الفضل، كما هو ظاهر الحديث؛ ولئن كان المرء لا ينفك عن الخطيئة، إلا أنّه لا ينبغي له التساهل فيها، والجراءة عليها، وإذا وقع في معصية، أو حصل منه خلل، بادر إلى التوبة، ومعالجة ذلك الذنب بالاستغفار، والبعد عن الإصرار.

فيا أيّها الحاجُّ الموفق: إذا قصدت مكة فعظّم الزمان والمكان لتنتفع بهذا الفرض، وتكتسب التقوى من خلاله، فهي أيّامًا معدودات لها أثرها البيّن على صاحبها، وتُحدث تغيُّرا واضحًا على من أدّى فرضه على الكمال، وهذا من فضل الله على عباده.

❋❋❋

(١) رواه البخاري

الإحرام ومظاهر العبودية فيه

كلُّ منسك من مناسك الحجّ والعمرة تظهر معه العبودية لله وحده، بما تتحقق به للعبد الموفق تقوى الله عز وجل، التي هي أعظم زاد يتزوّد به في سفره لهذين المنسكين أولاً، ثم في سفره إلى ربه بعد ذلك في كل حياته.

وفي الإحرام مظاهرُ للعبودية لا يُحاط بها، وحِكمٌ تفوق العدّ، ويعجز عنها الحصر.

فمِن مظاهر العبودية في الإحرام: لِباسه.

فحين يتجرّد المُحرِم من لِباسه المعتاد، ويلبس لباسًا خاصًّا بالإحرام، فإنّ هذا ليس مجرد خلع للملابس المعتادة ولبس رداءٍ وإزار مكانها، وإنَّما هو التعبّد لله بالاستجابة التامّة لما أمر به، ومن ثمّ فإنه ينبغي للمُحرِم ألا يغيب عنه احتساب ذلك عند ربه، فإنَّ الثواب يزداد مع الاحتساب.

وانظر كيف لا يرى الناس في لباس الإحرام شيئًا، بخلاف ما لو خرج أحدُهم على النّاس بلباسه الداخلي؛ لأنّه قد استقرَّ

عندهم أنّ لباس الإحرام لباسُ تعبُّدٍ لله تعالى في هذا النُسك.

وتأمّل في فضل الإحرام لتحمد الله على هذا الاصطفاء، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **"وما من مؤمنٍ يظلُّ يومَه محرمًا إلا غابت الشمسُ بذنوبِه"**(١).

وهذا فضل كبير من الرحمن جَلَّ وَعَلَا.

وفي لباس الإحرام: الإشارة إلى أنّ الزينة الكاملة التي يرتضيها اللهُ من عبده، هي زينة الباطن، وأمَّا زينة الظاهر فليست عند الله بمكان ما لم يتحلَّ العبد بزينة الباطن، وهي التقوى، فإذا اجتمعت الزينتان الباطنة والظاهرة مصحوبتين بالاحتساب، فإن ذلك ممّا يُحبه الله.

ومن مظاهر العبودية في الإحرام: استجابة المؤمن لربه بالإحرام من الميقات الذي حددّته له الشريعة، فقد وقّت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأمّة مواقيت لا يجوز لهم تجاوزها إذا قصدوا مكة للحجِّ والعمرة، فاستجاب أهل الإسلام لهذا الأمر، حتى

(١) رواه الترمذي والنسائي.

إنـك لتجد عندهم من الاحتياط في هذا ما هو معلوم، وهذا مظهر من مظاهر طاعتهم لربهم والتسـليم لأمـره، وفي هذا من العبودية لله ما فيه.

وفيه الإشـارة إلـى عظمة البيت الحـرام؛ إذ إنّـه لا يأتيه أحدٌ ناويًـا الحجَّ والعمرة إلا وجب عليه الإحـرام من هذه المواقيت المُحـدّدة؛ ليكـون في النفـوس تعظيم لـه، ولتكـون رحلتهم له مغايرة لسـائر الرحلات، فهي رحلة يقصد أصحابُها التقرُّب إلى ربهم فحسـب، فليس في مكة أنهـار أو زروع أو جوٌّ يطيب المقام فيه، ولكنها رحلة لقصد العبادة.

وقل مثل ذلك في الميقات الزماني للحجّ، فلا يُحرم بالحجّ إلا في أشـهر الحجّ، وهي: (شـوال، وذو القعَدة، وعشر ذي الحجة) ولو أحرم أحدٌ قبل شهر شوال لم ينعقد إحرامه.

ومن مظاهر عبودية الإحرام: أنّ المُحرم تحرم عليه أشياء هي في أصلها مباحة، فلا يُغطي الرجل رأسه، ولا يلبس المخيط، ولا تنتقب المرأةُ ولا تلبس القفّازيـن، ويبتعدون جميعًا عن الطيب،

وتقليم الأظافر، وقص الشعر، والجماع، ومباشرة النساء، وعقد النكاح، وقتل الصيد.

كل ذلك يتركه المحرم تعبّدًا لله واستجابة له، وفي هذا الترك والاستجابة الأجر العظيم.

وللإحرام حِكم كثيرة، فمن حِكم الإحرام: التجرّد من مُتع الدنيا وزينتها؛ ليكون القلب منشغلًا بأمر الآخرة، ومعتنيًا بالنسك الذي دخل فيه، فالإحرام مبناه على مفارقة العادات في الترفُّه، يقول الإمام النووي بعد ذكر محظورات الإحرام: **(قال العلماء: والحكمة في تحريم اللباس المذكور على المحرم ولباسه الإزار والرداء أن يبعد عن التّرفُّه ويتصّف بصفة الخاشع الذليل، وليتذكّر أنه محرم في كل وقت، فيكون أقرب إلى كثرة أذكاره، وأبلغ في مراقبته وصيانته لعبادته، وامتناعه من ارتكاب المحظورات، وليتذكّر به الموت ولباس الأكفان، ويتذكّر البعث يوم القيامة، والناس حفاة عراة مهطعين إلى الداعي، والحكمة في تحريم الطيب والنساء أن يبعد عن التّرفُّه وزينة الدنيا وملاذها، ويجتمع همه لمقاصد الآخرة).**

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الإحرام مبناه على مفارقة العادات في الترفّه، وترك أنواع الاستمتاعات؛ فلا يلبس اللباس المعتاد، ولا يتطيّب، ولا يتزيّن، ولا يتظلّل، ويلازم الخشوع والاخشيشان، ويقصد بيت الله أشعث أغبر).

وفي الإحرام: إظهار التذلّل لله، فالمحرم يَحسر عن رأسه، ولا يّغطيه بشيء تعبّدًا لله تعالى، كما إنّه يحلق شعره أو يُقصّره بعد الانتهاء من حجّه وعمرته تعبّدًا لله، واستحضار هذا ممّا يُحضر القلب في العبادة، ويجعل الأجر فيها أعظم.

وفي الإحرام: التذكير بالدار الآخرة، وهي الدار الحقيقة للإنسان، التي هو صائر إليه ولا بد، وسيبقى فيها أبد الآباد، فيتجرّد من اللباس ليعلم أنَّ خير لباس هو لباس التقوى، ويتخفّف من حوائج الدنيا إلا ما لا بد له منه؛ ليوقن أنّ الدار الآخرة هي التي تستحق العمل والزاد.

وفي الإحرام: يتجرّد المُحرمُ من اللباس ليتذكّر تجرّده من لباسه بعد الموت، حين يُجرّده المُغسّل بعد موته، فلئن كان اليوم يُجرّد نفسه، فسيأتي يومًا يُجرَّد من لباسه دون اختيار منه،

فليت شعري ما حال أحدنا يوم يُجرّد من اللباس، ويُقلّب ويُغسّل ليوارى التراب، ويستقبل الدار الآخرة والحساب.

وعند الهمّ بالرحلة للحجِّ يُفارق المُحرِمُ الأهل بطوعه، متذكّرًا فراقه لهم بغير طوعه ساعة مغادرته الدنيا بلا رجعة، ولئن فارقهم اليوم على أمل العودة، فسيكون فراق الغد بلا عودة، وستكون رحلةً بلا رجعة، وانتهاءَ حياة وبدايةَ أخرى، فحريٌّ بنا تذكُّر هذا لنعمل لهذا اليوم الذي لا بدّ منه.

ومِن حِكم الإحرام: الاستعداد لعبادة الحجّ والعمرة قبل البدء بهما، إذ إنَّ المُحرِم يمتنع عن كثير من المباحات فضلًا عن المُحرمات من حين إحرامه إلى أن يبدأ بالطواف؛ فيكتسب عبادة حفظ النفس عن الحرام، وحفظ الجوارح عن الآثام، وشغل النفس بطاعة التلبية حتى يبدأ بالطواف.

ومِن حِكم الإحرام: زرع فضيلة التواضع في القلوب، وإخضاع النفس للتذلّل لله والاستجابة لأمره، فالمُحرِمُ تجرّد من لباسه، وساوي غيره في هذا اللباس، وينبغي لمن عزم على الحجِّ

أو العمرة أن يكون متواضعًا فيهما، فإنّه إنّما يقصد القُربة إلى ربه في هذه العبادة -وليس سوى ذاك- وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجّته -وهو سيد ولد آدم- متواضعًا، يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (حجَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رَحْلٍ رَثٍّ، وقطيفةٍ خَلِقةٍ تساوي أربعةَ دراهم، أو لا تساوي، ثم قال: "اللهمَّ حجةً لا رياءَ فيها ولا سُمْعةً")[1].

وورث أصحابُه منه هذا التواضع في هذه العبادة، فعن ثمامة قال: (حجَّ أنسٌ على رحلٍ، ولم يكن شحيحًا، وحدَّث أَن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجَّ على رَحلٍ، وكانت زاملَتَه)[2]. والراحلة هي التي يركبها المسافر، والزاملة هي التي يحمل عليها طعامه ومتاعه، والمقصود أنه بلغ من تواضعه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقلة ما معه من طعام ومتاع أنّه لم يحتج إلى أن يكون له راحلة وزاملة، بل كانت راحلته هي زاملته.

(١) رواه الترمذي في "الشمائل" وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري.

إنّ هذه المعاني وغيرها إذا سكنت في نفس المُحرِم فإنّه سيؤدي عبادة الحجّ والعمرة على أكمل الوجوه، بخلاف من يذهل عنها ولا يستحضرها.

ومن حِكم الإحرام: أنّ الله وحّد لباسه بين الحُجّاج والمعتمرين ليظهر التساوي بينهم أبينَ ما يكون، فلا فرق بين أمير وخفير، ولا بين غني وفقير، ولا بين عالم وجاهل، ولا صحيح ومريض.

ومن حِكمه -خصوصًا في زماننا هذا-: ما يشدّ النّاس من منظر المُحرِمين وهم صفوف في صلاتهم، وفي طوافهم وسعيهم، وفي سيرهم بين المشاعر، وما تنقله وسائل الإعلام للعالَم من هذه المناظر المُؤثرة في الناظرين، ممّا يستدل به على عظمة شرع الله وكماله، ويوقن من رآه أنّه من لدن حكيم خبير.

فأقبل على ربك مع أوّل هذه العبادة بقلبٍ ممتلئٍ شكرًا لربه أن اصطفاك لهذا الفضل، واختارك لأداء هذا النسك، وأن تكون مع أهل الوقوف في عرفات هذا العام.

ويُستحبُّ للمُحرم التنظّف، والاغتسال عند الإحرام، فقد رُوي أنّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ اغتسل لإحرامه. رواه الترمذي.

وعَنِ ابْنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (من السُّنَّةِ أن يغتسِلَ عند إحرامِه وعند مَدخَلِ مَكَّةَ)[1].

واستحباب الغُسل عن الإحرام هو مذهب جمهور العلماء، قال الشيخ ابنُ باز رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولِما فيه من النظافة والتنشيط، ولأن المدة قد تطول، فيكون الاغتسال فيه نشاط وقوة ونظافة)[2].

ويُشرع له الطيب في البدن لا في اللباس قبل عقد الإحرام، تقول عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كُنْتُ أُطَيِّبُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإِحْرَامِهِ حِينَ يُحْرِمُ، ولِحِلِّهِ قَبْلَ أنْ يَطُوفَ بالبَيْتِ)[3].

يقول الإمام ابنُ باز رَحِمَهُ اللَّهُ: (فالسنة له أن يتطيب كما كان النبيُّ يفعل، يغتسل ويتطيب حتى يبقى في حال الإحرام في حالة حسنةٍ، ورائحة طيبةٍ)[4].

---

(١) أخرجه الحاكمُ والبيهقي.

(٢) [شرح المنتقى: باب الغسل للإحرام والوقوف بعرفة ودخول مكة]

(٣) رواه البخاري.

(٤) [شرح المنتقى: باب الغسل للإحرام والوقوف بعرفة ودخول مكة]

ويُستحب الإحرام عقب صلاة وذلك باتفاق المذاهب الأربعة

فيكون بعد صلاة فريضة أو سُـنّة ضحى أو سُـنّة وضوء، أو تحية مسجد، وليس له صلاة مستقلّة.

سـهل الله لـك أداء النسـك علـى أكمـل حـال، وجعلك من المقبولين.

❊❊❊

التلبيةُ والإهلال في الحجِّ

من شعائر الحجِّ الظاهرة: التلبية والإهلال.

ولقد كان التوحيد في تلبيةُ رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ظاهرًا،** فكان يُلبّي بقوله: (لَبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ، قال جابرٌ: لا يَزِيدُ عَلَى هَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ)[1].

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **يلبي وهو مستحضرٌ ألوهية ربه البيّنة،** فكان يقول في تلبيته: (لَبَّيْكَ إِلَهَ الْحَقِّ)[2].

فالتلبيةُ شعار التوحيد، الذي هو روح الحجِّ ومقصده، بل روح العبادات كلها والمقصود منها؛ ولهذا كانت التلبية مفتاح هذه العبادة التي يدخل بها الحاجُّ في النُسك.

ومعنى التلبية: الإجابة بعد الإجابة، كأنّه قال: كلما أجبتك في أمر فأنا في الأمر الآخر مجيب، فالحاجُّ قد استجاب لأمر ربه

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أحمد، وهو في السلسلة الصحيحة.

الذي أمره بالحجّ إلى بيته، فانقاد له ولبّاه.

ومن معاني التلبية: الإقامـة واللزوم، فيبقى الحاجُّ مقيمًا على طاعة ربه ملازمًا لها طيلة أيّام نسكه.

ومن معانيها: أنها تتضمـن الخضوعَ والذُّلَّ، أي خضوعًا لك بعد خضوع، من قولهم: أنا مُلِبّ بين يديك، أي خاضع ذليل.

ومن معانيها: حُبًّا لك بعد حب، من قولهم "امرأة لَبّة" إذا كانت مُحبّة لولدها، ولا يقال لبيك إلا لمن تحبه وتعظّمه، ولا أعظمُ حُبًّا من عبدٍ أحبَّ ربه ومولاه، فاستجاب لأمره، ولبّى نداءه.

وهي متضمنة لإخلاص العمل، مأخوذ من لُبِّ الشـيء، وهو خالصه.

فتأمّـل أثر التلبية في نفس المُلبّي حين يقولها مسـتحضرًا هذه المعـاني، فهو مجيـبٌ لربه، منقادٌ لـه، مقيمٌ وملتـزمٌ لطاعته طيلة نُسـكه وعباداته في الحـجِّ، محبٌ لمولاه، خاضعٌ لـه، ولُبُّ تلك المعاني (الإخلاص لله فيها).

ولو سـكنت معاني هذه التلبية في نفس كلّ ملبٍ لشعر بأثرها، ولأدَّى عبادة الحجّ والعمرة بصورة يُرى أثرها عليه.

فلـذا كان لزامًا على كلِّ مُلَبٍّ، ومتقرّب إلى ربه بهذا النُسـك الجليل أحياء هذه المعاني في نفسـه عند تلبيته لينتفع بها، وليؤدِّيَ هذه العبادة على أكمل وجه.

لقـد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثر من التلبية في مناسـك الحجّ كلها من حين إحرامه حتى يرمى جمرة العقبة ، وهكذا ينبغي على كلِّ مُحرم أن يفعل ليعيش مع هذه العبادة في غالب أوقات إحرامه، فعنَ أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنّه كانَ رِدْفَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عَرَفَةَ إلى المُزْدَلِفَةِ، ثُـمَّ أَرْدَفَ الفَضْلَ مِنَ المزْدَلِفَةِ إلى مِنًى، قالَ: فَكِلَاهُما قالَ: "لَمْ يَزَلِ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُلَبِّي حتَّى رَمَى جَمْرَةَ العَقَبَةِ"(١).

يفعل ذلك مذكّرًا نفسه بها، ومعلِّمًا ومُرشدًا أمّته للإكثار منها حتى يرموا جمرة العقبة يوم العيد.

وقد ذكر النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأمّة فضائل التلبية حتى يحرصوا عليها، ويُكثروا منها، يقـول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أفضل الحجّ العجُّ والثجُّ"(٢).

(١) رواه البخاري.

(٢) أخرجه الترمذيُّ، وهو في صحيح الجامع.

والعـجُّ: رفع الصوت بالتلبية، **والثجُّ**: سـيلان دماء الهدي لله عَزَّوَجَلَّ.

ويقـول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **"مـا مِنْ مسـلمٍ يُلَبِّـي إلَّا لَبَّى ما عن يمينِهِ وشـمالِهِ مِنْ حجَرٍ أوْ شـجرٍ أوْ مدرٍ حتى تنقطعَ الأرضُ مِنْ هنا وها هنا"**(١).

فـإذا لبّى الحاجُّ فإنّه يشـعر بترابطه مع سـائر المخلوقات حيث تتجاوب معه في عبودية الله، ويكون هو السبب لهذه العبوديات لها.

ويقـول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **في فضلها: "مـا أَهَلَّ مُهِلٌّ قَـطُّ ولا كبَّرَ مُكَبِّرٌ قَطّ إلا بُشِّرَ بالجنَّةِ"**(٢).

فجديرٌ بالحاجّ والمعتمر أن يمضي جُلَّ وقته فيها، وعند تغيّر الأحوال مـن الصعود والنزول، وعند إقبال الليـل وإدبار النهار، فما يُرَى مـن ضعف هذه العبادة عند المعتمرين والحجّاج جدير بإيقاظه، إحياءً لهذه السُنَّة التي ضعُف أداؤها عند الكثير.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ، وهو في صحيح الجامع.

(٢) أخرجه الطبراني، وهو في صحيح الجامع.

والإكثار من التلبية منذ تَلَبُّسِ المُحرم بإحرامه سببٌ رئيسٌ في أداء الحجِّ على أحسن وجّه، وأكمل حال، فلها أثرها المعلوم في زيادة الإيمان، خصوصًا مع استحضار معانيها، حتى إذا ما شرع في طوافه كانت النفس قد تهيَّأت للعبادة.

وممّا يقوله المُلبّي في تلبيته: (إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ)

(فهي مشتملةٌ لحمد الله الذي هو من أحبَّ ما يتقرّب به العبد إلى الله، وعلى الاعتراف لله بالنعم كلها، ولهذا عرّفها باللام المفيدة للاستغراق، أي النعم كلها لك، وأنت موليها والمنعم بها، وعلى الاعتراف بأنّ الملك كله لله وحده، فلا ملك على الحقيقية لغيره)[1].

فهنيئًا لحاجٍّ ألزم نفسه هذه التلبية في حجّه، وقالها بحضور قلب.

❋❋❋

(١) [انظر مختصر تهذيب السنن لابن القيم (٢/ ٣٣٥-٣٣٩)]

دخولُ مكةَ، وشكر الله تعالى

أيّها الحاجُّ الموفق..

اعلـم أنّ الله قد خصّـك بنعمة جليلة، ومنحة كريمة، بتيسـير وصولك إلى بيته الحـرام لتُؤدي عبادة عند الله بمكان، وقد تقدّم لك ذكر فضائلها.

فحـقٌ عليك وقد أقبلت على بيته، وسـتؤدي عبـادات يُحبها الله مـن عبده، ووعـد عليها بالإكرام والإفضـال أن يمتلئ القلب شكرًا، ويعترف الجَنان بالمنّة، ويُكثر اللسان الحمد.

فالوصـول إلى مكة أمنية الملايين من المسـلمين في مشـارق ومغاربها، واختارك الله من بينهم، وحسنُ ظنٍ بالله أنّه ما اصطفاك إلا ليُكرمـك، ومـا جاء بك إلـى بيته إلا لِيتفضّـل عليك، ويُثيبك علـى ما تقوم به مـن عبادات، قـال علي بن الموفـق: (حجّجتُ ستين حجّة، فلمّا كان بعد ذلك جلست في الحِجر، أفكّر في حالي وكثـرة ترادي إلى ذلـك المكان، ولا أدري هـل قُبل مني حجّي أم رُد! ثـمّ نِمـتُ فرأيتُ في منامـي قائلًا يقول لي: هـل تدعو إلى

بيتك إلا من تُحب! قال: فاستيقظت وقد سُرّي عنّي)[1]. ففرح واستبشر بهذه الرؤيا.

تذكّر وأنت مقبلٌ على بيت الله الحرام أنّك ستطوف بالكعبة التي أمر اللهُ عبادَه بالتوجّه إليها كل يوم خمس مرات، وأوّل بيت الله وضعها الله للعبادة، فالعبادةُ فيها قديمة قِدم السنين، وضاربة في جذور التاريخ.

وعليك بتجديد النية مع إقبالك على بلده الحرام، وأنّك تُريد بحجِّك وجّه الله، والدارَ الآخرة، فالشيطان لا يزال يسعى في إفساد النية عليك، وطلب وجوهَ الخلق، ومدحهم وثنائهم، ولكنّ المؤمن يعلم أنّ اللهَ هو أحق من يُتَوجّه إليه، ويُقصدُ في العبادة، فهو الذي يُؤْجرُ ويُثيب، وهو الذي يُثني ويكافئ أمّا الخلق فإنهم لا يملك لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملكوه لغيرهم.

ومن آداب دخول مكة:

الاغتسال قبل دخولها أو قبل البدء بالطواف، فقد كان ابْنُ عمر: (لَا يَقْدَمُ مَكَّةَ إِلَّا بَاتَ بِذِي طُوًى حَتَّى يُصْبِحَ وَيَغْتَسِلَ ثُمَّ

(١) [لطائف المعارف:٦٦]

يَدْخُل مَكَّةَ نَهارًا، وَيذكرُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ فَعَلَهُ)[1].

وَلِمَالِكٍ فِي "الْمُوَطَّإِ" عَنْ نَافِعٍ: (أَنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ يَغْتَسِلُ لِإِحْرَامِهِ قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ، وَلِدُخُولِ مَكَّةَ، وَلِوُقُوفِهِ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ)[2].

فيُستحبُّ لكلِّ مَن دخل مكة المكرمة محرمًا أن يغتسل؛ وقد نقل الحافظ ابن حجر حكاية الإجماع على ذلك عن الإمام ابن المنذر، بعد أن ذكر تبويب الإمام البخاري بقوله: [قوله: باب الاغتسال عند دخول مكة] اهـ[3].

وذلك حتى يُؤدي العبادة وهو في أحسن حال، فالمسافر تبقى فيه رائحة العرق، وشعث السفر، فاستُحب له الاغتسال ليذهب عنه كل أذى، وينشط في الطواف والسعي.

وإن تيسر لك أن تبتدئ دخول مكة بالمسجد لأجل الطواف بالبيت فافعل، فقد أخبرت أم المؤمنين السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ: "أَوَّلَ شَيْءٍ بَدَأَ بِهِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حِينَ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ. وَلِلْبُخَارِيِّ مَعْنَاهُ.

(٢) الموطأ

(٣) [في فتح الباري: ٣/ ٤٣٥]

قَدِمَ أَنَّهُ تَوَضَّأَ، ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ عُمْرَةً"[1].

قال الإمام الطيبي: (وفي الحديث: الابتداءُ بالطواف في أول دخول مكة سواءً كان محرمًا بحجٍّ، أو بعمرة، أو غير محرم) اهـ[2].

وفقك اللهُ لكل خير، ويسّر لك حجّك.

❊❊❊

(١) متفق عليه.

(٢) [مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٩/ ١٠٥]

الطوافُ ومظاهر العبودية فيه

الطـواف ببيت الله الحرام في الحجِّ ركن من أركانه، جاء الأمر به في كتاب الله بقولـه تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾[1] وسُمي البيت العتيق بهذا الاسم (لأنّه أُعْتِقَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ أَنْ يُسَلَّطُوا عَلَيْهِ) نقله ابن كثير عن مجاهد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

وقيل: لأنَّ عنده تُعتق الرقاب، وتُغفر الذنوب، وفيه أقوال أخرى.

والطـواف عبـادةٌ جليلة القـدر، رفيعة المنزلـة، عظيمةُ الأثر على من أدَّاها بحضـور قلب، فيُدرك حلاوتها ولذتها، وينتفع بها أعظم انتفاع.

والطواف ليس مجرّد مشي وطواف على بُنية قائمة شرّفها الله، بل هو عبـادةٌ عظيمة جعلها الله لأهل الأرض وسـكّان السـماء، يقـول ابن كثير: **(وَفِي كُلِّ سَـمَاءٍ بَيْتٌ يَتَعَبَّدُ فِيـهِ أَهْلُهَا، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُقَالُ لَهُ: بَيْتُ الْعِزَّةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ)**[2].

---

(١) [سورة الحج: آية ٢٩]

(٢) [انظر تفسير ابن كثير: سورة الطور]

ولا يوجد مـكان في الأرض يُطاف عليه إلا الكعبة المُشـرَّفة، أمّا ما يفعله الجهلة من الطواف حول القبور، فهو ضلالٌ مبين.

وعبـادةُ الطواف من أعجب العبـادات التي تعبَّد اللهُ بها تعالى عبـاده؛ فهي عبادة عجيبة في مظهرهـا، وعجيبة في جوهرها، ولذا تقـف عاجزًا حائـرًا أمام هـذا الأمر الإلهـي الذي أمر بـه عباده، فتبحث السِّـرَّ فـلا تجد إلاَّ إجابةً واحدة لا ثـاني لها، وهي تعظيم شعائر الله، والتي هي من تقوى القلوب، وإقامة ذكره.

وحتـى لا تكون عبادة الطـواف جوفاء لا روح فيهـا، فينبغي للطائـف أن يُحضـر قلبَه فيه، لينتفع بـه، ويُؤديه على أكمل وجه، وممّا يعين على ذلك:

اسـتحضار فضل هذه العبادة، واستحضار مكانة البيت، ولقد جـاءت الأحاديث بفضل الطواف، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قـال: سَـمِعْتُ رسـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُـولُ: **"مَنْ طَـافَ بِهَذَا الْبَيْتِ أُسْـبُوعًا فَأَحْصَاهُ** -أي: يَحصرُ عددَه فيجعله سبعًا لا زيادةَ ولا نقص- **كَانَ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ"**[1].

(١) رواه الترمذي.

وقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما رفع رجلٌ قدمًا ولا وضعَها إلا كُتبت له عشرُ حسناتٍ، وحُطَّ عنه عشرُ سيئاتٍ، ورُفع له عشرُ درجاتٍ"(١).

وفي بيت الله الحجر الأسود والركن اليماني، وفي تقبيل الحجر الأسود ومسح الركن اليماني أجور كثيرة، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إنَّ مسحَ الحجرِ الأسودِ والركنَ اليمانيَّ، يحُطَّان الخطايا حطًّا"(٢).

تذكَّر وأنت تطوف بالبيت أنَّك تقوم بعبادة جليلة، فالطواف حول الكعبة مثل الصلاة إلاَّ أنه استثني منه الكلام المباح، فعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "الطَّوَافُ حَوْلَ الْبَيْتِ مِثْلُ الصَّلَاةِ؛ إلاَّ أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ؛ فَلَا يَتَكَلَّمَنَّ إلاَّ بِخَيْرٍ"(٣).

(١) رواه أحمد وهذا لفظه، والترمذي.

(٢) رواه الترمذي، والنسائي.

(٣) رواه الترمذي، وصحّحه الألباني في صحيح الترمذي.

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ عَنِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "الطَّوَافُ صَلاةٌ، فَأَقِلُّوا فيه الْكَلامَ"(١).

وانظر لحال السلف مع هذه العبادة لترى البون الشاسع بيننا وبينهم في تعظيم شعائر الله، ومنها عبادة الطواف، قال عطاء بن أبي رباح: (رأيتُ عبدَ الله بن عمر وعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يطوفان بالبيت جميعًا كأنَّ على رؤوسهما الطير تخشُّعًا).

وقال: (طفتُ وراء ابن عمر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فلم أسمع أحدًا منهما يتكلم في الطواف).

وعن عبدالكريم بن أبي المخارق قال: قال لنا طاوس: (إذا كنتُ في الطواف فلا تسألوني عن شيء؛ فإنَّما الطواف صلاة)

قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْعَمَلُ على هذا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، يَسْتَحِبُّونَ أَلاَّ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ في الطَّوافِ؛ إلاَّ لِحَاجَةٍ، أو بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، أو مِنَ الْعِلْمِ)(٢).

---

(١) رواه الطبراني وصحّحه ابن حجر في التلخيص الحبير، والألباني في صحيح الجامع.

(٢) [سنن الترمذي: ٣/ ٢٩٣]

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وينبغي للطائف أن يكون في طوافه خاشعًا متخشِّعًا، حاضرَ القلب، ملازمَ الأدب بظاهره وباطنه، وفي هيئته وحركته ونظره، فإنَّ الطواف صلاةٌ، فيتأدَّب بآدابها، ويستشعر بقلبِه عظمةَ مَنْ يطوف ببيتِه)[1].

فحريٌّ بالطائف أن يكون حال طوافه متأدِّبًا بهذه الآداب، منشغلًا بهذه العبادة عن كل شيء، صارفًا الذهن لها، معتنيًا بإيقاعها أحسن موقع، متأمّلًا ما يقول من دعاء وذكر، فالطواف عبادة كسائر العبادات ينبغي أداؤها على أكمل حال.

وإذا رأيتَ اليوم حال كثير من الطائفين، وكيف انشغلوا بالخلق، والتصوير والغفلة، بل ربما تعدَّى هذا إلى النظر المحرَّم، عرفتَ لماذا ضعف أثر الطواف عليهم، وكيف صار الطواف عبادة لا روح فيها عند الكثير، وصار همُّ الطائف بالبيت متى ينتهي منه.

(١) [المجموع: ٨/ ٥٠]

واستحضر وأنت تطوف مكانةَ الكعبة المشرفة ومنزلتها، فما زالت الكعبةُ المشرَّفة معظَّمةً مكرَّمة في نفوس المؤمنين فِطرةً ودِيانةً، فطرةً بما أودعه الله في القلوب من حب الكعبة وتعظيمها، واشتياق الأرواح إليها، وديانةً بما أمر الله تعالى به المؤمنين من تعظيمها وإجلالها، وبما ارتبط بها من شعائر تعبديَّة بصلاةٍ يتَّجه فيها المسلمون بقلوبهم وأجسادهم نحوها، وبحجٍّ يتكبَّد فيه المسلمون المشاقَّ والمتاعب على حبٍّ؛ ليؤدُّوا المناسك كما أمرهم الله تعالى في صورةٍ تُبهر العالَم أجمع.

وهذا الاستحضار والمعرفة لمكانتها يورث العبد تعظيمها ومحبتها، ويجعل طوافه بها يكون على حال التعظيم والإجلال، قال الله في بيان هذه المكانة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾[1].

فجعل الله بيته مثابةً للنّاس لا ينتهي شوقهم إليه، وجعله آمنًا لمن دخله، وأمر بتطهيره لكل طائفٍ ومصلٍ وقاصد له عنايةً به،

(١) [سورة البقرة: آية ١٢٥]

واهتمامًا بشأنه، وأضافه لنفسه الشريفة إضافة تشريف، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حبًّا له وشوقًا إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين، يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبدًا، بل كلَّما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حُبًّا، وإليه اشتياقًا، فلا الوِصال يشفيهم، ولا البعاد يسليهم، فزادت محبته في القلوب، وأقبلت إليه الأفئدة من كل جانب، وقصده المحبون من كلِّ مكان.

طُفّ به مُتَذَكِّرًا أنَّه أوّل بيت وُضع للعبادة في الأرض، وأنّ الله جعله قبلة للمسلمين، يؤمونه كل فرض، وإذا استحضرت تفاوت مواقيت الصلوات في العالم عرفتَ أنّه يُؤمُّ ويُتجّه إليه في كلّ دقيقة من دقائق الليل والنهار، فما أعظم هذا البيت، وما أرفع مكانته!

وقال المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لا تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ بِخَيْرٍ مَا عَظَّمُوا هَذِهِ الحُرْمَةَ حَقَّ تَعْظِيمِهَا"**(١).

وكانت مكانة الكعبة عظيمة القدْر، عالية المنزلة عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولذا لمّا رقيَ على الصفا نظر إلى الكعبة، ومع أنَّهُ في

(١) [أخرجه ابن ماجه]

السعي إلا أنّه أراد أن يُعَلِّم النّاس عظمة البيت وارتباط القلوب به، وأنّ استقباله حال الدعاء من آداب الدعاء واستجماع القلب فيه.

قال ابـنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي الأثـر: أنّ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمّا حجّ البيت وقضى نسـكه، أتته الملائكة، فقالوا لـه: يا آدم، بَرَّ حجُّك، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام)[1].

كـأني أمـامَ الـعـتـيـقِ ذَهُـولْ

وهـذا الـجـلالُ بـسِـرِّي يـجـولْ

ومـا أنْ وقـفـتُ بِـبَـيْـتِـكَ عَـبْـدًا

رأيـتُ الـجـمـالَ إلـيـكَ يـؤولْ

فَـأيُّ بَـهَـاءٍ وَأَيُّ ضِـيَـاءْ

إِذَا شَـعَّ نُـورٌ يَـعُـمُّ الْـفَـضَـاءْ

فَـكَـعْـبَـةُ رَبِّـي جَـلالٌ وَنُـورٌ

وَكَـعْـبَـةُ رَبِّـي ائْـتِـلاقُ الـسَّـمَـاء

(١) [لطائف المعارف:٦٣]

ويبدأُ الطائفُ طوافه بقوله: (بسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ، اللهمَّ إيمانًا بِكَ وتَصْدِيقًا بِكِتَابِكَ، ووَفَاءً بِعَهْدِكَ، واتِّبَاعًا لسُنَّةِ نَبِيِّكَ) ويستلم الحجر ويُقبّله إن تيسر له ذلك، فإن شق عليه التقبيل استلمه بيده وقبَّل يده، فإن شقَّ عليه استلمه بعصا وقبَّلها، فإن شق عليه أشار إليه بيده وكبر.

وينشغل بالذكر والدعاء، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويستحب له في الطواف أن يذكر الله تعالى، ويدعوه بما شرع وإن قرأ القرآن سِرًّا فلا بأس، وليس فيه ذكر محدود عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل يدعو فيه بسائر الأدعية الشرعية، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختم طوافه بين الركنين بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾[1]. كما كان يختم سائر دعائه بذلك، والطواف بالبيت كالصلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام فلا يتكلم فيه إلا بخير)[2].

---

(١) [سورة البقرة: آية ٢٠١]

(٢) [منسك شيخ الإسلام]

وينبغي تذكير نفسك وأنت تطوف بالكعبة أنَّك في عبادة لله جليلة، وهذا ما يجعلك حاضر القلب في طوافك، مستجمع النفس على القيام به على أحسن حال، ولْيمتلئ القلبُ شكرًا لله أَنْ خَصَّكَ بهذه العبادة، واصطفاك لهذا النسك، وجعلك تطوف في أعظم العبادات، وتؤدي ركنًا عظيمًا من أركان الإسلام، وفي زمان فاضل، وأحسن الظنَّ بربك بأنّه ما وفقك ويسّر لك المجيء إلا ليُكرمك ويغفر لك، ويُعطيك سؤلك، ويُجيب دعوتك.

استحضر وأنت تطوف كم ذرفت حول بيت الله من دمعات، وكم أُجيبت من دعوات، وكم أكرم اللهُ عنده مِنْ عبد، وكم غُفرت هنا مِنْ ذنوب وخطيئات، وكم خرج طائفون بعد طوافهم كيوم ولدتهم أمّهاتُهم، ففي فضل طواف الوداع، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **(وأمَّا طَوافُكَ بالبيتِ بعدَ ذلكَ؛ فإنَّكَ تَطوفُ ولا ذَنْبَ لكَ، يأتي مَلَكٌ حتَّى يضَعَ يدَيْهِ بينَ كَتِفَيْكَ، فيقولُ: اعمَلْ فيما تَستَقبِلُ؛ فقد غُفِرَ لكَ ما مَضى)**[1].

(١) رواه الطبراني، والبزّار، واللفظ له، وهو حديثٌ حسن.

فإذا ما انتهى الطائفُ بالبيت من طوافه يكون حاله بين القبول والرجاء - رجاء القبول وخوف الرد- مع إحسان الظنّ بالله، ثمّ يصلي خلف مقام إبراهيم إن تيسر، وإلا صلى في أي مكان، ويقرأ قبل صلاة الركعتين قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[1].

امتثالًا لأمر الله الآمر بهذا، ومتأسيًا بنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي فعل ذلك، واستشعار ذلك ممّا يزيد الإيمان، ووجدان لذة العبادة فيها، ويتذكر هنا مقام إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الذي وقف على هذا الحجر ليرفع بناء البيت، ومقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وقف في هذا المكان وصلى.

إنّ إحياء هذه العبوديات في النفس من أعظم الأسباب لإكمال هذه العبادة، وأدائها على أحسن حال، وإيقاعها على أحسن موقع.

وإذا رأيتَ هؤلاء الخلق الذي يُعدُون بالملايين، وهذه الأعداد الهائلة التي تطوف بالبيت الحرام، ولا ينقطع الطواف

(١) [سورة البقرة: آية ١٢٥]

عـن الكعبـة في أزمنتنا لحظة واحدة، ظهرت لـك في بيت الله عِبر وآيات، منها: ما جعله الله في قلب كلِّ مؤمن ومؤمنة -كما تقدّم- من حبٍّ للكعبة، وأنسٍ عند النظر إليها، والجلوس إلى جوارها، أو الطـواف بهـا؛ فكم ترتجف القلـوب فرحًا إذا رأتهـا، وكم مِنْ عبَرَات ودمعات تُسـكب إذا شـاهدتها، بل إنّ كثيـرًا من النفوس المؤمنة تتمنى البقاء بجوارهـا وعدم مغادرتها أبدًا، كلّ ذلك حبًّا لهذه البُنية العظيمة، فيا لله كم جعل الله في بيته من آيات!

وما إن رأيتُ سِتارَ العتيقِ
بقلبي هواهُ أسيرٌ حبيسْ
أوجّهُ وجهي له بِخُشوعٍ
كوجْهِ العَروسِ لوَجْهِ العريس
أُسائلُ نفسي وقومي هُجُوعْ
أحقًا أتَيتُ لأغلى الرُّبوعْ؟
أنام وأصحو وقلبي يُلبِّي
وتنسابُ مِنْ مُقْلَتَيَّ الدموعْ

وهذا الشـوق إلى بيت الله لا ينقطع عنهم مهما عادوا إليه، بل تشـتاق له النفس بمجـرد مغادرته ولو كان العهـد قريبًا، وهذا ما خصّ اللهُ به بيتَه دون سائر البيوت.

ومـن مظاهر آيات الله في الطـواف: إذعان هذه الأعداد الهائلة للطـواف حول الكعبة، فمع أنّها في ظاهرها بُنية صامتة لكنّها عند أهل الإيمان بيتٌ عظيم، له منزلته الرفيعة في شرع الله، فيطوف به أهل الإيمان اسـتجابة لأمر ربهم، ورغبة في الأجر والثواب الذي جاء فيه.

وهنا تنبيه مهم ينبغي الإشـارة إليه، وهو أنَّ طواف المسلمين حول الكعبة، وبين الصفا والمروة وسـائر مناسك الحجّ إنّما هو اسـتجابة لأمر الله الذي أمرهم بذلـك، فالطواف في حقيقته عبادة لله، وليـس لذات الكعبة، ولئـن كان للكعبة المكانة الشـرعية في الإسـلام، والوجدانيـة في نفـوس المسـلمين، إلا أنّهـم يطوفون تعبُّـدًا لله، ولذا يقـرأ المؤمنون قول الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾[1]؛ وهـم حال طوافهم بهـذا البيت لا يدعون البيت،

(١) [سورة قريش: آية ٣]

وإنمـا يدعون الله تعالـى، فالطائف يُكثر من ذكـر الله، ويكثر من دعائه، ويكثر من قراءة القرآن، ويخضع لربه ويخشـع، ويتواضع بين يديه.

فكن معظِّمًا ربك، مسـتجمع القلب عند الطواف، كثير الذكر والدعاء لتذوق حلاوة الطواف، وتنال ثمراته.

❊❊❊

السعيُ واستشعار معانيه

ومن عبادات الحجِّ العظيمة السعيُ بين الصفا والمروة، فقد أمر اللهُ به في كتابه بقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾[1].

وجاء الأمر به في سُنّة نبيه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله وفعله، قَالَت عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: (**ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ الطَّوَافَ بِهِمَا -أي بين الصفا والمروة- فَلَيسَ لأَحَدٍ أَنْ يَدع الطَّوَافَ بِهِمَا**)[2].

وعند مسلم قالت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: (**طاف رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وطاف المسلمون، فكانت سُنَّةً**)[3].

ومرادها بالطواف هو السعي كما ذكر أهل العلم؛ لأنَّ الطواف بالكعبة ركن متفقٌ عليه، ويُؤيده الحديث الذي يليه، والمقصود بقولها: (فكانت سُنَّةً) أي: سُنّةٌ واجبة.

---

(١) [سورة البقرة: الآية ١٥٨]

(٢) أَخرَجَاهُ في الصَّحِيحَين.

(٣) رواه مسلم.

وعن حبيبةَ بنتِ أبي تِجْراةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (رَأَيتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالنَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ وَرَاءَهُمْ، وَهُوَ يَسْعَى حَتَّى أَرَى رُكْبَتَيْهِ مِنْ شِدَّةِ السَّعْيِ يَدُورُ بِهِ إِزَارُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: "اسعَوا، فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ")[1].

والسعيُ عبادة تظهر فيها العبودية الحقَّة للعبد المؤمن، والاستجابة الكاملة لربه، ومن فضائله ما جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "... **وأمَّا طوافُكَ بالصَّفا والمروةِ؛ كعِتْقِ سبعينَ رقبةً**" -أي: في الفضل والأجر-[2].

فانظر لهذا الفضل الكبير الذي جعله الله لمن سعى، واستحضره، واحتسبه عند الله، وأحمده عليه.

وأصلُ مشروعيَّةِ السَّعْيِ هو سعيُ هاجرَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عندما تركَها إبراهيمُ مع ابنِهما إسماعيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بمكَّة، ونَفِدَ ما معها من طعامٍ وشرابٍ، وبدأت تشعُرُ هي وابنُها بالعطشِ؛ فسَعَتْ بين الصَّفا والمروةِ سَبْعَ مرَّاتٍ طلبًا للماءِ؛ يقول ابنُ عباس: (وجعلَتْ

(١) رواه أحمد وابن خزيمة، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن خزيمة.

(٢) رواه الطبراني، والبزّار، واللفظ له، وهو حديثٌ حسن.

أمُّ إسماعيلَ تُرْضِعُ إسماعيلَ وتَشْرَبُ من ذلك الماءِ، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاءِ عَطِشَت وعَطِشَ ابنُها، وجعلت تنظرُ إليه يتلوى أو قال: يتلبَّطُ، فانطلقت كراهيةَ أن تنظُرَ إليه، فوجَدَت الصَّفا أقربَ جبلٍ في الأرضِ يليها، فقامت عليه، ثم استقبلَتِ الواديَ تنظُرُ: هل ترى أحدًا، فلم تَرَ أحدًا، فهَبَطَت مِنَ الصَّفا حتى إذا بلغَتِ الواديَ، رفعت طَرَفَ دِرْعِها، ثم سعت سَعْيَ الإنسانِ المجهودِ، حتى إذا جاوزت الواديَ، ثم أتت المروةَ، فقامت عليها، ونظَرَت هل ترى أحدًا، فلم تَرَ أحدًا، ففعلت ذلك سبْعَ مرَّاتٍ، قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فذلك سَعْيُ النَّاسِ بينهما"(١).

ففي هذا المكان قامت تسعى وتطلب ضارعة إلى الله تعالى أن يهديها إلى ماء تروي به ظمأها وظمأ ابنها، فانفجرت الأرض عن بئر زمزم، قال ابنُ كثير في تفسيره: (فَلَمْ تَزَلْ تَرَدَّدُ فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْمُشَرَّفَةِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مُتَذَلِّلَةً خَائِفَةً وَجِلَةً مُضْطَرَّةً فَقِيرَةً إِلَى اللهِ، عَزَّوَجَلَّ، حَتَّى كَشَفَ اللهُ كُرْبَتَهَا، وَآنَسَ غُرْبَتَهَا، وَفَرَّجَ شِدَّتَهَا، وَأَنْبَعَ لَهَا زَمْزَمَ التي مَاؤُهَا طَعَامُ طَعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ).

(١) رواه البخاري.

وها هو ماء زمـزم الذي أطعمه الله الملايين من الناس؛ حيث يستقي منه حُجّاج بيت الله الحرام من آلاف السنين إلى يومنا هذا.

والسـعي بيـن الصفا والمروة ليس مجرّد مشـي بيـن جبلين، وذهـاب ومجـيء مـن دون حكمـة وغايـة، بل هـو اتِّباع لسُـنن المرسـلين، ومنسـك من مناسـك الحجّ والعمرة، به يتـمّ الحجّ والعمرة، ومعه يتحقّق الاستسلام لله والاستجابة لأمره.

وفيـه استشـعارُ العبد بـأنّ حاجته إلى خالقـه ورازقه كحاجة تلك المـرأة في ذلك الوقت، وتوجهّه لربه كتوجهّها له في كشـف كُرَبِـه، ويتذكّـر بـه السـاعي أنّ من يطيـع الله فإنّـه لا يضيّعه، ولا يخيّـب سـعيه، كما لم يضيّع سـعي هـذه المرأة الصالحـة وابنها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن ينقـذه مـن شـدائد العـوز والاحتيـاج، وأن يرحمه برحمته الواسعة كما رحم هاجر وابنها بماء زمزم.

وفيـه يسـتحضر العبد فقره إلـى ربه، وحاجته لمـولاه في كلِّ شـؤونه، قال ابنُ كثير في تفسـيره: (**فَالسَّـاعِي بَيْنَهُمَـا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْـتَحْضِرَ فَقْرَهُ وَذُلَّهُ وَحَاجَتَهُ إِلـى اللهِ فِي هِدَايَةِ قَلْبِهِ وَصَلَاحِ حَالِهِ**

وَغُفْرَانِ ذَنْبِهِ، وَأَنْ يَلْتَجِئَ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِيُزِيحَ مَا هُوَ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ، وَأَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَأَنْ يُثَبِّتَهُ عَلَيْهِ إِلَى مَمَاتِهِ، وَأَنْ يُحَوِّلَهُ مِنْ حَالِهِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، إِلَى حَالِ الْكَمَالِ وَالْغُفْرَانِ وَالسَّدَادِ وَالِاسْتِقَامَةِ، كَمَا فَعَلَ بِهَاجَرَ عَلَيْهَا السَّلَامُ)[1].

وهذه معانٍ جليلة ينبغي أن يستحضرها الساعي بين الصفا والمروة، فإظهار الفقر لله من أنفع الأمور للعبد، فيسعى وهو مضطر لرحمة الله وهدايته، وحاجته لصلاح قلبه، وغفران ذنوبه، وتكميل حاله، فمن فعل ذلك تجده خاشعًا، حاضر القلب في سعيه، يُؤديه وقد اجتمع عليه قلبُه، وأخلص لله في الدعاء، وأظهر الفاقة لمولاه، فقل بربك كيف سيخرج الساعي من سعيه وهو مستحضر هذه المعاني أثناء سعيه؟!

واستحضر بالمقابل حال من غفل عنها، ويسعى وكأنّه يمشي بلا غاية من هذا السعي؛ لتُوقن بأهمية حضور القلب في هذه المناسك، وأثره على الحاجِّ والمعتمر.

(١) [تفسير ابن كثير، سورة الحج]

وكلما كان قلب الساعي حاضرًا فيه، فإنه يؤدِّيه على أكمل وجه، ويجد اللذة لهذه العبادة، ويخرج منها بقلب الخاشع الذليل لربه، ويقوى هذا مع لزوم الذكر في السعي، وشغل النفس به، وترك الانشغال بالخلق، وكذلك طول الدعاء وكثرته وتنوّعه، وإظهار الفاقة للربِّ الكريم، وكم سمعنا عن أناسٍ صالحين يقف أحدهم وقوفًا طويلًا على الصفا والمروة، داعيًا مناجيًا ربه، لعلمهم أنّ هذه المواطن من مواطن إجابة الدعاء، وأنّها عبادات لها أثرها في قلب العبد الناسك.

وممّا ينبغي للساعي أن يستشعره عند سعيه أنّه ممتثل لأمر الله الذي أمره بذلك، فمن استشعر ذلك وجد حلاوة العبادة، يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: "فلما دنا من الصفا" يعني قرب منه، قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[1] "أبدأ بما بدأ الله به" وفائدة هذه القراءة إشعار نفسه بأنّه إنّما اتجه إلى السعي امتثالاً لما أرشد الله إليه في قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ وليعلم الناس أنهم إنما يسعون بين الصفا والمروة من أجل أنهما

(١) [سورة البقرة: الآية ١٥٨]

من شعائر الله، وليعلم الناس أيضًا أنه ينبغي للإنسان إذا فعل عبادة أن يشعر نفسه أنه يفعلها طاعة لله عَزَّوَجَلَّ كما لو توضأ الإنسان، فينبغي أن يستشعر عند وضوئه أن يتوضأ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ (١) ويشعر أيضا أنه يتوضأ كأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمامه يتبعه في وضوئه، وهكذا جميع العبادات فإذا استشعر الإنسان عند فعل العبادة أنه يفعلها امتثالاً لأمر الله فإنه يجد لها لذةً وأثرًا طيبًا)(٢).

أمَّا صفة السعي الثابتة، فإنّه يبتدئ بالصفا و[يُشْرَعُ له إذا دنا مِنَ الصَّفا أن يقرأَ قَوْلَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾(٣). ويقول: (أبدأُ بما بدأَ الله به)، ويقتصِرُ في قوله هذا على الصَّفا في المرَّةِ الأولى فقط، ويرتقي على الصَّفا حتى يرى الكعبةَ ويستقبلها، ويُكَبِّر ثلاثًا: اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، ويقول: لا إلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، له المُلْك وله الحَمْدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ، لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه، أنجَزَ وَعْدَه، ونصَرَ عَبْدَه،

(١) [سورة المائدة: آية ٦]

(٢) شرح حديث جابر في صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم ص ٣٥.

(٣) [سورة البقرة: الآية ١٥٨]

وهَـزَمَ الأحـزابَ وَحْدَه. ثم يدعو بما تيسَّـرَ، رافعًا يديـه، ويُكَرِّر ذلك (ثلاثَ مـرَّاتٍ)، ويقول ويفعل على المَـروةِ كما قال وفَعَلَ على الصَّفا، في الأشـواطِ السبعة، ما عدا قراءةَ الآيةِ، وقولَه: (أبدأُ بما بدأَ اللهُ به) ويُكْثِرُ مِنَ الدُّعاءِ والذِّكْرِ في سَـعْيِه، ومن ذلك: ربِّ اغفِرْ وارحَمْ؛ إنَّك أنت الأعزُّ الأكرمُ)[1].

قـال الألباني: (وإن دعا في السَّـعي بقولِه: ربِّ اغفِـرْ وارحَمْ؛ إنَّك أنت الأعزُّ الأكرمُ، فلا بأس؛ لثبوته عن جمعٍ مِنَ السلف، وذكر منهم ابن مسعود وابن عمر والمسيب بن رافع الكاهلي وعروة بن الزبير)[2].

والمشـي في السعي أفضل، فعَنِ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "إنَّ رسـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثُـرَ عليه النَّـاسُ يقولون: هـذا محمَّدٌ، هـذا محمَّدٌ. حتى خـرج العواتِقُ مِـنَ البيوت، وكان رسـولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُضْـرَبُ النَّاسُ بيـن يَدَيْه، فلمَّا كَثُـرَ عليه رَكِبَ، والمشيُ والسَّعيُ أفضَلُ"[3].

---

(١) [الموسوعة الفقهية، موقع الدرر السنية]

(٢) [مناسك الحج والعُمْرة: ٢٧].

(٣) رواه مسلم.

ويستحب لمن أراد إكمال السعي على أكمل وجه أن يكون سعيه عقب الطواف بأن يواليه دون تأخّر، وأن يسعى على طهارة من الحدث الأكبر والأصغر، وأن يرقى على الصفا وعلى المروة -ولو قليلاً-، وأن يكون منشغلًا بالذكر والدعاء وتلاوة القرآن طَوَال سعيه.

وفقك الله، وجعلك من المقبولين.

❋❋❋

الحجُّ ويوم عرفة، وتحقيق العبودية، وعظمة الرجاء

يـوم عرفـة من أيَّـام الله الخالدة، وهو يـومٌ أغرُّ، وشـامة في أيَّام الدهر، وهو ملتقى المسـلمين المشـهود، جعلـه الله يومًا واحدًا في العام، بل هو ساعات معدودات، وعشيته أعظم عشية في العام كله.

وها هي شـمسُ هذا اليوم المبارك تُشرق، ويفرح المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بدخوله، ويزداد فرح أهلُ عرفات به.

يسـيرون إلـى موقـف عرفـة، وقلوبهـم ممتلئـة سـعادةً بهذا الاصطفاء، رجاء أن يكونوا عتقاء ربهم من النّار.

يأملـون وقد دخلوها محمّلين بـالأوزار أن يخرجوا منها عند مغيب الشـمس وقـد طُهّـروا ونُقّوا مـن الذنوب، وغُفـرت لهم الخطايـا والآثـام، فبأي قلب سيسـير هذا الركب المبـارك، وأيُّ فرح يسكن تلك الأفئدة؟!

فإذا ما أقبلْتَ أيُّها الحاجُّ على عرفات فاعرف فضل الله عليك، ولْينظر إلى قلبك وقد امتلأ حمدًا له، معترفًا أنّك عاجزٌ عن الثناء عليه، ولسانك يلهج بالشكر على هذه النعمة وهذا التوفيق.

وإنّي مُوصيك إن أردتَ الانتفـاع بيوم عرفة الانتفاع الكامل، أن تنظـر إليه نظرةً مغايرةً لبقية أيّـام عامك، بل أيّام عمرك، فكثيرٌ من الحُجّاج ربما لن يتيسّـر لهـم المجيء إلى عرفات مرة أخرى لكثرة أعداد الحُجّاج هذه الأعوام، ولأنّ الحجَّ في الأصلِ واجبٌ على المسلم في العمر مرة واحدة فقط، فحريٌّ بمن بلغ عرفات أن يعتنـي بهذا اليوم عناية فائقة، ويتعامل معه معاملة خاصّة، ويتفرّغ فيه تفرغًا تامًّا للعبادة.

وإذا نظرت لحال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا اليوم رأيتَ كيف كانت عنايته به، حيث انصرف فيه للعبادة والدعاء، وَشَغَلَ عشيَّتَه كُلَّها بالمناجاة بصورة واضحة للعيان، فجمع عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بين صلاتي الظهر والعصر حتى يتفرَّغ للدعاء.

وجاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (**ثُمَّ رَكِبَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى أَتَى المَوْقِـفَ، فَجَعَلَ بَطْنَ نَاقَتِهِ القَصْوَاءِ إلى الصَّخَرَاتِ، وَجَعَلَ حَبْـلَ المُشَـاةِ بيْنَ يَدَيْهِ، وَاسْـتَقْبَلَ القِبْلَـةَ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًـا حتَّى غَرَبَت الشَّمْسُ، وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا، حتَّى غَابَ القُرْصُ**)[1].

(١) رواه مسلم.

فتأمّل قولَه: (فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حتَّى غَرَبَت الشَّمْسُ) لترى استغراق هذه العشية كلها في الدعاء لعلمه -وهو أعلم الأمّة بشرفِ هذا اليوم- ولذا لم يرد في سنته كلها أنّه استغرق مثل هذا الوقت في الدعاء والمناجاة، حتى إنّ الصحابة شكّوا هل كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صائمًا أم لا؟ فأرسلت إليه أمُّ الفضل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بلبن بعد العصر فشرب منه والناس ينظرون.

وجاء عند الإمام النسائي من حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "كنتُ رديفَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعرفاتٍ، فرفعَ يديْهِ يدعو فمالت بِهِ ناقتُهُ فسقطَ خطامُها فتناولَ الخطامَ بإحدى يديْهِ وَهوَ رافعٌ يدَهُ الأخرى"(١) كلّ ذلك مبالغة في رفع اليدين، واستغراقًا في المناجاة.

فإذا عرفتَ هذا من حال نبيك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو عبدٌ غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر-، فما سواه أحقُّ بصدق اللجوء، وإظهار الفاقة والحاجة للمغفرة، وتفريغ الوقت لهذا المقصد، واستغراق أغلب ساعات هذا اليوم بالدعاء.

(١) رواه النسائي.

وحتى يكون اغتنامك ليوم عرفة على الوجه الأكمل، فلا بُدَّ لك من معرفة مكانة هذا اليوم المبارك، وهاك طرفًا من هذه المكانة:

۞ معرفة مكانته.

فهو اليوم الذي أكمل اللهُ فيه الدين وأتمَّ فيه النعمة، وأنزل فيه قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] فهو يومٌ يذكّر المؤمن بكمال هذا الدين، فلا يحتاج لزيادة، فاحمد الله أن اصطفاك وجعلك مسلمًا، فالعالم حولك يتخبّط في دياجير الباطل، وخزعبلات العقيدة، وضلالات العبادات، وظلام الكفر، وأنت عبدٌ مصطفى من بينهم، جعلك اللهُ مسلمًا له مؤمنًا به.

وهو عيدُ أهل الموقف، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **"يومُ عرفةَ ويومُ النَّحرِ وأيَّامُ التَّشريقِ عيدُنا أهلَ الإسلامِ وهي أيَّامُ أكلٍ وشربٍ"**[2].

---

(١) [سورة المائدة: الآية ٣]

(٢) رواه أهلُ السُنن.

الوقوف بعرفة هو ركنُ الحجِّ الأعظم، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الحجُّ عرفةُ "**(١). فهو الركن الذي من فاته الوقوف فيه فاته الحجّ. إنَّ يومًا بهذه المنزلة، وتلك المكانة لحريٌّ بمن بلّغه الله إيّاه أن يقدره حق قدرْه، وأن يُعظّمه حق التعظيم، وأن يُنزله من نفسه المنزلة اللائقة به.

۞ يومُ عرفة هو يوم مباهاة الله للواقفين فيه.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"إنَّ الله يباهي بأهلِ عرفاتٍ أهلَ السماءِ، فيقول لهم: انظروا إلى عبادي جاؤوني شُعثًا غبرًا"**(٢).

فيُباهي الله تعالى بهم، ويُظهر فضلهم، ويُري الملائكة حُسن عملهم، ويُعظّمهم بحضرتهم ويُثني عليهم، فقد أطاعوه، واستجابوا له، فوقفوا في المكان الذي حدّده، وفي الزمان الذي وقّته، وفي الحال الذي ينبغي أن يكونوا عليه من الإحرام والتجرّد من كلِّ لباسٍ يُخالفُ هيئة التذلّل، فلا زينة ظاهرة عليهم، وإنّما

(١) رواه النسائيُّ

(٢) رواه أحمد، وابن حبان في "صحيحه"، والحاكم وقال: "صحيح على شرطهما"

هو الإخبات والتذلّل، والخضوع بين يديه، وإظهار الفاقة إليه.

ومباهاة الله بأهل عرفات شرفٌ كبير لهم، وهو أيضًا من دلائل رحمته، فمعلومٌ أنّ في الواقفين المُقصّر والمذنب، والمتجاوز للحدود، بل والمسرف على نفسه بكبائر الذنوب، ومع ذا يُباهي الله بهم، ففيه الرفعة لمقام الواقفين في عرفات، ورضا اللهُ عن صنيعهم هذا، وكرامته لهم، ومغفرته لهم، ولذا قال ابنُ عبدالبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهذا يدل على أنهم مغفور لهم؛ لأنّه لا يباهي بأهل الخطايا والذنوب إلا من بعد التوبة والغفران)**[1].

فأيُّ نعمة أنت فيها أيُّها الواقف في عرفاتٍ هذه العشية، وأيُّ كرامة حزتها!

ومن كرامة الله لأهل عرفة، أنّه يدنو منهم، ففي الحديث: **"وإنَّه لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ المَلائِكَةَ"**[2].

وهو دُنُوٌّ حقيقي لا نُكَيِّفُهُ بأذهاننا، أو نَتَصَوَّرُهُ بأفكارنا، أو نُشَبِّهُهُ بنزول المخلوق، تعالى الله عن ذلك، فهو أعظمُ وأجلُّ، ولا شبيه

(١) [التمهيد: ١:١٢٠]

(٢) رواه مسلم

لـه ولا مثيل في الصفات، ومنها الصفات الفعلية كهذا الدُنُوِّ، وإنّما نؤمن بها دون الخوض في كيفيتها، وتشبيهها، أو السؤال عنها.

والله ينزل كُلَّ ليلة إلى السماء الدنيا نزولًا يليق به، إلا عشيةَ عرفة فإنَّه يدنو فيها، والعشية هي آخر ساعات النهار.

فهو الدُنُوُّ الوحيد له في نهار العام كله، وهذا الإخبار منه ليعتني الواقفون بهذه العشية، ويغتنموا هذا الفضل، ويتعرّضوا لرحمته، ويزداد توجّه القلوب لربها، وهذا الدنوّ فيه الإشارة إلى عناية الله بالواقفين في عرفة، وإكرامه لهم، والاحتفاء بهم والثناء عليهم.

۞ يومُ عرفة يوم العتق من النّار.

فمن مِنَّةِ الله على أهل عرفات أنَّه جعله أكثر الأيّام عِتقًا من النّار، وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك ليتعرّض العباد لهذه النفحات، ويجتهدوا أن ينالوا هذا الفضل، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"ما من يوم أكثرُ من أن يُعتِقَ الله فيه عبيدًا من النار مِن يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثمّ يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟!"**[1].

(١) رواه مسلم والنسائي وابن ماجه.

وزاد رزين في "جامعه" فيه: "اشهدوا ملائكتي أني قد غفرت لهم"

ومعنى قوله: "ما أَرادَ هَؤلاءِ؟!" أي: أيُّ شَيءٍ أَرادَ هَؤلاءِ حيثُ تَركوا أَهْلَهم وأَوْطانَهم وصَرَفوا أَموالَهم وأَتعَبوا أَبْدانَهم؟! والجوابُ محذوفٌ، تَقديرُه: ما أرادوا إلاَّ المَغفرةَ والرِّضا، وَهذا يَدُلُّ عَلى أَنَّهم مَغفورٌ لَهم؛ لأَنَّه لا يُباهي بأَهْلِ الخَطايا والذُّنوبِ إلَّا مِن بَعدِ التَّوبةِ والغُفرانِ، فيوم عرفة هو يوم الخلاص من النّار، والعتق والسلامة منها، وهل هناك مطلوب أعظم من المطلوب؟!

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وقفَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعرفات وقد كادت الشمسُ أن تؤوبَ، فقال: "يا بلال، أَنصِتْ لي الناسَ" فقام بلال فقال: أَنْصِتوا لرسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنصتَ الناسُ، فقال: "معاشرَ الناسِ، أَتاني جبرائيل آنفًا، فأقرأني من رَبي السلامَ وقال: إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ غفرَ لأهلِ عرفاتٍ وأَهل المَشْعَر، وضَمِنَ عنهم التَّبِعاتِ" فقام عمر بنُ الخطاب فقال: يا رسول الله، هذا لنا خاصة؟! قال: "هذا لكم، ولمن أتى من بعدِكم إلى يوم القيامة" فقال عمر بن الخطاب: كَثُرَ خيرُ الله وطابَ[1].

(١) أخرجه المنذري، وقال الألباني: صحيح لغيره.

ذنوبك أيّها الواقف في عرفة غُفرت بإذن الله، وخطيئاتك مُحيت، وآثامك تجاوز الله عنها، فأيُّ فضل أعظم من هذا!؟ وأيُّ خير فُزتَ به هذه العشية؟!

ويقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **"فإذا وقفت بـ (عرفةَ) فإنّ الله عز وجل يَنزلُ إلى سماءِ الدنيا فيقول: انظروا إلى عبادي شُعثًا غُبرًا، اشهدوا أني قد غفرت لهم ذنوبهم، وإن كانت عدد قَطرِ السماء ورملِ عالج"**[1].

فهذه الفضائل هي التي جاءت بالمؤمنين من كلِّ فجٍّ عميق، فلبّوا نداء ربهم بالحجِّ، أداءً لِما أوجب من الحجِّ إلى بيته، ورجاء نيل هذه الخيرات، ولأجله وأجل غيره من مناسك الحجّ حرص الصالحون على الإكثار من الوقوف في عرفة، فنُقِلَ عن بعضهم أنَّه حجّ سبعين حجة، ومنهم من حجَّ ستين حجة وخمسين حجَّة، ومن هؤلاء إمام العصر الإمام عبدالعزيز ابن باز، فقد حجَّ قرابة خمسين حجة، فهنيئًا لنفسٍ وُفِّقت للوقوف في عرفة، ونالت فضل العتق من النّار بإذن الله تعالى.

---

(١) رواه البزار والطبراني، وابن حبان في "صحيحه" واللفظ له. وهو في صحيح الترغيب والترهيب.

يومُ عرفة والدعاء المستجاب فيه

يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير"(١).

فأفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، قال ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه من الفقه: أنَّ دعاء يوم عرفة أفضل من غيره، وأنَّه مجاب كله في الأغلب"(٢).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذا اليوم أَفْضَلُ أيام السَّنَة للدُّعاء، وهو مُعْظَمُ الحَجِّ ومَقْصُودُه والمُعَوَّلُ عليه، فينبغي أنْ يَسْتَفْرِغَ الإنسانُ وُسْعَهُ في الذِّكر والدُّعاءِ وفي قراءةِ القرآنِ، وأنْ يدعوَ بأنواعِ الأدعية، ويأتي بأنواعِ الأذكار، ويدعو لِنَفْسِه ووالديه وأقاربِه، ومشايخِه وأصحابِه وأصدقائِه وأحبابِه، وسائرِ مَنْ أحْسَنَ إليه، وجميعِ المسلمين)(٣).

---

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

(٢) [التمهيد: ١:١٢٠]

(٣) [كتاب الأذكار للنووي: ١٩٨]

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإنّه من المعلوم أنّ الحجيج عشية عرفة ينزل على قلوبهم من الإيمان والرحمة والنور والبركة ما لا يمكن التعبير عنه)[1].

فاغتنم توجّه القلب وخضوع النفس، وأظهر فقرك وفاقتك لربك الكريم، واعتنِ في هذا اليوم بهذه العبادة أشدَّ العناية، فمعلوم أنّ لكل وقت عبادة، وأن لكل وقت واجبًا وفضيلة، وعبادة اليوم، هي: (عبادةُ الذكر والدعاء)

وقد تقدَّم أنَّ قدوتنا وأسوتنا في العبادة -نبينا وخليل الرحمن محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقف في يوم عرفة يدعو الله عَزَّوَجَلَّ من زوال الشمس إلى غروبها مبتهلًا بالذكر والدعاء والإنابة والخشوع، ولم يملَّ ولم يتعبْ من طول القيام والدعاء، فكان شعاره القوة في العبادة، ودثاره اللذة في المناجاة.

فاجمع مطالبك ودعواتك وأمنياتك وسائر حوائجك، وارفعها لربك، ولا تستكثر طلبًا أن تطلبه، ولا تستعظم مسألة أن

(١) [الفتاوى شرح حديث النزول: ٥/ ٣٧٤]

تسألها، ولا يأتِ في نفسك استحالةُ تحقيق دعوة، وإن كانت في ظاهرها صعبة، أو أنَّها متعذِّرة المنال، فإنّما تدعو ربًّا قديرًا مجيبًا، وتسأل إلهًا سميعًا، وترجو سيدًا جوادًا كريمًا، العطاءُ عنده أحبُّ من المنع، والجود عنده أوسع من الحرمان.

ادعه وأنت مستحضر سعة رزقه، وكمال جوده، وكثرة فضله، وجميل إحسانه.

وادعه وقلبُك ممتلئٌ ثقة به، وأنّه ربٌّ لا يُعجزه طلب، ولكنَّه يُعطي بفضل، ويمنع بحكمة.

واجعل أهم مطالبك مطالب الآخرة، من التوفيق للهداية، والعلم النافع، والعمل الصالح، ونفع المسلمين.

وطهّر قلبك فيه، وأَحِبَّ للمسلمين ما تُحِبُّه لنفسك، وادعُ لهم كما تدعو لنفسك، فهذه الأمور من أسباب إجابة الدعاء بإذن الله.

وجدِّدْ في هذا اليوم التوبة، وأكثر من الاستغفار والندم على ما سلف منك، وعاهد الله على الاستقامة والاستجابة لأمره، فيوم عرفة من أنفع الأوقات للتوبة، وإظهار الندم له تأثير في إجابة الدعاء ومغفرة الذنوب.

ويُستحبُّ للداعي استجماع شروط الدعاء وآدابه من الإخلاص، والرجاء، واليقين، وحسن الظنّ بالله، والجزم في المسألة، والانكسار والتضرّع، والطهارة واستقبال القبلة، والسؤال بالأسماء الحسنى، والأدعية القرآنية والنبوية وجوامع الدعاء، والاعتراف بالذنب، وطلب المغفرة والرحمة، ورفع اليدين، وتكرار الدعاء، والصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا يمنعك تقصيرك في طاعة الله، ولا يُقنِّطْك الشيطان عن الإقبال على الله بحجة أنّك صاحب ذنوب ومعاصٍ، فالمقصّرُ -وكلنا ذلك- أشدُّ النَّاسِ حاجةً للمغفرة، وأولاهم طلبًا للرحمة، فاغتنم هذا اليوم الأغرّ بالدعاء، فيوم عرفة يحيا معه الأمل، ويعظم معه الرجاء، وتحقّق فيه الأمانيُّ التي كان يتمناها كلُّ داعٍ وربما تأخَّرت عليه، ويرجو فيه كلُّ سائل إجابة سؤله، فكم من دعوات أُجيت عشية هذا اليوم المبارك، وكم من مطالب تمت لأصحابها، فاللهم اغفر لنا وارحمنا، وتجاوز عن تقصيرنا، وأنت أرحمُ الراحمين، وأجب دعواتنا كلها.

يومُ عرفة، ومظاهر عظمة الله فيه

عظمـةُ الله تعالـى ظاهـرة في كلِّ ذرة من كونـه، وتظهر اليوم للمتأمليـن، فيقـف المؤمـن متأمِّـلاً في عظمـة ربه، واسـتحقاقه للعبادة، وإفراده بالمسألة.

انظر لهذه الأعداد الهائلة وهي تقف في مكان واحد، ويجمعهم صعيـد واحد، قد اختلفـت لغاتهم، وتمايزت ألوانهـم، وتنوّعت مطالبهـم، وتبايـن إتقانهم لعبادتهم، واختلـف إخلاصهم في هذه العبـادة، وفي دعائهم ومسـألتهم، ومع ذلك كلـه إلا أنّهم عند الله سواء، فيعلم الله حالهم، ويرى مكانهم، ويسمع دعاءهم، ويُحيط بمطالبهم، ويعلم نيّاتهم.

وانظر لعظمة الله في شـأن الدعاء، فهو يسمع دعوات الداعين كلهم هذا اليوم، وأعدادهم بالملايين، مع اختلاف لغاتهم، وتعدّد حوائجهـم، واختـلاف مطالبهـم، وتبايـن أحوالهـم في الصـدق والإخلاص، والإتيان بأسـباب الإجابة، واسـتحقاقهم لها، ومع ذلـك كله، فهو سـبحانه لا تخفى عليـه دعوة، ويـرى كل دمعة، ويعلـم ندم كل من تـاب، واعتراف كل من قصَّـر، وهو خبير بما

انطوت عليه نفس كُلِّ داعٍ، وحكيم باستحقاق كل سائل، وعليم بعواقب كل مسألة، وما الأنفع لهذا المضطر.

دعاؤهم عنده -سبحانه- كدعاء رجل واحد، لا تختلف عليه لغاتهم، ولا تلتبس عليه مسائلهم، ولا تغلطه كثرة الأصوات والداعين، ذلك أنَّهُ واحد أحد لا شبيه له ولا مثيل ولا نظير، قد باينت صفاته عَزَّوَجَلَّ صفات خلقه، فسبحان من له الكمال المطلق، والملك المطلق، والإرادة المطلقة، ونفذ أمره في عباده.

وتظهر عظمته في انفراده بالشرع، فهو الذي شرع الوقوف هذا اليوم، ووعد الثواب عليه، فليس لأحدٍ أن يُشَرِّعَ، ولو شَرَّعَ لأَكَبَّهُ اللهُ في النّار، فسبحان من تفرّد بالأوامر والنواهي، وتفرّد بالتشريع.

وتظهر عظمته في استجابة العباد لأمره، فيأتون في مكان واحد، ليس فيه من مقومات الحياة شيئًا إلا طعام يومهم وشرابه، وفي زمان واحد لا يتخلَّف عنه أحد، بل لو تخلَّف لم ينفعه وقوفه فيه، ولو وقف سائر أيَّام العام.

يوم عرفة وإظهار الفقر والمسكنة لله

روى البيهقي في السنن الكبرى عن ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (رأيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو بعرفة، يداه إلى صدره كاستطعام المِسكين)[1].

يفعل ذلك عليه الصلاة والسلام لكمال إخلاصه في العبادة، وصدق خشته لربه، فإظهار الفقر والحاجة إلى الله تعالى ممّا ينبغي أن يكون عليه الحاجّ في يومه هذا.

وإظهار الفقر لله إرثٌ نبويٌّ سطّرته آيات القرآن، فها هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يرفع هذه الدعوات لربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[2] وقد تقدّم آنفًا حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم عرفة، فأظهر فقرك اليوم أيُّها الداعي وابكِ وتَبَاكَ، وليرى اللهُ من قلبك الاضطرار والحاجة، وأنَّك لا غنى لك عن فضله وإحسانه، ولا عن رحمته ومغفرته، ولا عن عافيته وهدايته، وأنه لا ملجأ لك في شؤونك كلها إلا إليه، فالخلقُ كُلُّهم فقراء إلى ربهم في كلِّ ذرة

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى

(٢) [سورة القصص: الآية ٢٤]

مـن ذرات حوائجهـم، وفي كل أمر من أمور حياتهـم، وإنّ إظهار الفقر في الدعاء يُثمر الخشية، وحضور القلب فيه، واجتماعه على التوجّه إلى الله.

يوم عرفة والإرث العظيم

في يوم عرفة يتذكّر الحاجُّ أنّه على أعظم إرث للبشـرية -وهو إرث الأنبيـاء الكـرام عليهـم الصلاة والسـلام-، فقد قـال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للصحابة في يوم عرفة: **"قِفُوا على مَشاعِرِكم؛ فإنكم على إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أبيكم إبراهيمَ صلواتُ اللهِ عليه"**(١).

وهذا عامٌّ لكل مَنْ حجَّ مِنْ هذه الأمّة إلى يوم القيامة، فإنّهم قد اقتفوا آثار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ووُفِّقُوا للسير على نهجهم، وكانت عبادتهم على أكمل سبيل وأهدى طريق.

فكُفَّـارُ قريش كانـوا يحجُّـون في جاهليتهم، ولكنَّهـم غَيَّروا وبَدَّلُوا، وخالفوا أمر الله فيه، ومن ذلك الشرك في القصد والتلبية، ومنهـا التغييـر في أماكن وقوفهم، فكانوا لا يقفـون في عرفة، فلمَّا بُعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدين الحق وحجّ بالنّاس، وقف بهم

(١) رواه أبو داود.

حيث أمر الله وأَحَبَّ من عباده، وحيث وقف أبو الأنبياء ومن بعده من أبنائه المرسلين عليهم الصلاة والسلام، فبشّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمةَ أنَّهم واقفون على إرث أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا ممَّا يفرحُ به أهل عرفات، حيث وفَّقهم الله للعمل المقبول عنده.

إنَّ شعور الحاجِّ أنَّه مُتَّبِعٌ لأشرف عباد الله، والمُصطَفَيْنَ من البشر يجعله يقف والقلب ممتلئٌ شُكرًا لربه على هذا التوفيق، وهذا الاجتباء والاصطفاء، وأنَّه في عبادة جليلة قد اصطفاه لها، فيسعى لأنّ يؤدي هذه العبادة على أكمل وجه، فاحمد الله على هذا، وزد شكرًا وثناءً لربك.

۞ اجتماع يومُ عرفة، واجتماع النَّاس يوم القيامة.

يتذكَّرُ مَنْ أَحضَرَ قَلبَه في عرفة يوم القيامة واجتماع النّاس في صعيد واحد، يَنفُذُهُم البَصَرُ، فلا يأتي على آخرهم مُبْصِرٌ، وَيُسمِعُهُم الداعي، فيبلغ آخرَهم الصَّوتُ كما يَبلُغُ أَوَّلَهُم، في قدرة عظيمة للربِّ العظيم.

جمعهم اللهُ القوي العزيز في مكان واحد، وأحاط بهم، وعَلِمَ أحوالهم، وظهرت قوته كأظهر ما يكون على جمعهم وحشرهم وإذعانهم لهم، فلا يستطيع أحدٌ منهم أن يهرب أو يتخلَّف.

إنَّ اجتماع النّاس يوم عرفة مشهد يجعل المتدبِّرَ يعيش بقلبه ذلك اليوم الذي لا ينبغي أن يغيب عنه، فهو آتٍ لا محالة، فيستعد له بالعمل الصالح، ويتزوّد له بالزاد الذي ينفعه، فلا يكون همُّهُ إلا النجاة من أهواله، والفوز بعده، ويكون ممَّن ينال كتابه بيمينه، ويُحاسبُ فيه حسابًا يسيرًا.

۞ يومُ عرفة، وظهورذُلّ الشيطان.

جاء في الحديث: "ما رُؤيَ الشيطانُ يومًا هو فيه أصغرُ ولا أدحرُ ولا أحقرُ ولا أغيظُ منه يومَ عرفةَ، وما ذاك إلاَّ لما يرَى من تنزُّلِ الرحمةِ وتجاوُزِ اللهِ عن الذنوبِ العظام، إلاَّ ما كان من يومِ بدرٍ. فقيل: وما رأَى يومَ بدرٍ؟! قال: أما إنَّه قد رأَى جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يَزَعُ الملائكةَ"[1].

(١) رواه مالكٌ في الموطأ مرسلًا باب جامع الحج، والبغوي في شرح السنة.

فعَـدُوُّ بني آدم إبليسُ قد بذل جهـده في إضلالهم، وأفنى وقته في إغوائهـم، فأطاعه طائفةٌ منهم، فيأتي هـذا اليوم المبارك، فيغفر اللهُ فيه الذنوب -كرمًا منه وفضلاً-، ويُقيل العثرات ويمحو كبائر الخطيئـات، ويتجاوز عما ارتكبه هـؤلاء المذنبون، فيبطل عمل الشـيطان ويضيع سـعيه، ويـرى أنَّ جهده الذي أمضـاه في إغواء بني آدم في أعوام قد نُسِـفَ في سـاعات، وعاد بالخيبة والخسـار، فاحمد الله يـا من اصطفاك ربُّك وبلغت هـذا الموطن، وأدركت هذا الزمان، فقد رجع عَدُوُّكَ بالحسـرة والندامة بسبب مغفرة الله لك، فاعرف فضل ربك عليك.

۞ يومُ عرفة، ووقت الإنابة والتوبة.

كم كان يومُ عرفة موعـدًا لإنابة كثيرٍ من المذنبين ورجوعهم إلى ربهـم، وندمهم بين يـدي مولاهم، فالقلوب فيـه تتوجّه إلى الله، والنفـوس تسـتحضر مغفـرة ربها وإقالـة السـيئات للتائبين، فيعود المسـرف على نفسـه باللائمـة، ويفيق الضَّالُّ من سـكرته ويؤوب إلى رشـده، ويخاطبها بلسـان كسير ورغبة صادقة: حتى متـى أبقى بعيدًا عن الله، فالمؤمنون اليـوم يبكون بين يدي ربهم،

ويسألونه مغفرته وفضله وإحسانه، وأنا ما زلت على ذنبي قائمًا، ولمعصيتي ملازمًا، فيأتي هذا اليوم العظيم مذكِّرًا كلَّ نفس مسرفة على نفسها بالذنوب بمغفرة الله، وقربه من عباده، ورحمته بهم، وإقالته لذنوبهم، وعفوه عن خطيئاتهم، وقبوله توبتهم.

فيا لله، كم تاب في يوم عرفة من تائبين، فقبل الله توبتهم، وكم أناب من معرضين، فردهم إليه ردًّا جميلاً!

إنَّها الساعات المباركات، التي من تعرَّض لها نال كُلَّ خير، ومن وُفِّق لها سعد سعادة أبديَّة، فتعرَّضْ لهذه النفحات، فلعله يكون يوم التوبة النصوح.

۞ يومُ عرفة، وكلمة التوحيد.

يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **"خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"**(١).

فـ(لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) هي أعظم الكلمات وأفضلها، وأحسن الحسنات وأكملها، وهي العروة الوثقى، والمُخلّصة من الشرك،

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

والمُبَرَّئَةُ من أهله، وهي أصل الدين وأساسه، ومفتاح دار السعادة، ومنشور دار الولاية، والإكثار منها في هذا اليوم له شأنه ومكانته، فاليوم يوم عرفة وهو سيد الأيام، والذكر (لا إله إلا الله) سيد الأذكار وأعلاها منزلة وأعظمها أجرًا، فأكثر منها، واجعلها قرينة دعائك في هذا اليوم العظيم.

تنبيه مهم:

لِيَعلَم الحُجَّاجُ أن موقف عرفات يبدأ بعد الزوال، فإذا أتوا عرفة قبلها، فالأولى لهم أخذ قِسطٍ من الراحة ليكون أنشط للدعاء والذكر ومناجاة ربهم بعد صلاتي الظهر والعصر.

وينبغي البعد عن المضيعات والمشتِّتات، مثل إمضاء أكثر ساعات عرفة بالنوم، أو كثرة الانشغال بالجوال والتصوير، وأوصيك بإغلاقه، فإنَّما هي ساعات وينتهي يوم عرفة، وابتعد عن كثرة التَّحَدُّثِ والمماراة والجدال، واحفظ جوارحك عن المُحَرَّمات، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إنَّ هذا يومٌ مَن مَلك فيه سمعه وبصره ولسانه، غُفِر له"**[1].

(١) رواه أبو يَعْلى، وصَحَّحه المنذري.

فيحفظ الحاجُّ بصره عن النظر المحرّم سواء للنساء في الطرقات أو عن طريق أجهزة التواصل والصور، وكيف يليق بحاجٍّ ترك بلده وولده، وتحمَّل الصعاب لأجل الوصول إلى هنا ثمَّ هو يعصي اللهَ تعالى.

ويحفظ كذلك لسانه وسائر جوارحه، ويراقب قلبه عن أن ينطوي على خطيئة، وينوي صلة كلِّ قطيعة، ويعفو عن كلِّ من ظلمه، ويدعو كثيرًا لمن تعدى عليه.

وفقك الله لاغتنام هذا اليوم المبارك، وجعلك من عتقائه من النار، وأجاب لك كلَّ دعوة تدعو بها، وصرف عنك كلَّ شرٍ تخشاه، وحقّق لك كلَّ أمنية ترجوها.

❊❊❊

الحجُّ وليلة مزدلفة، وذكر الله عند المشعر الحرام

من ليالي الحجِّ المباركة (ليلةُ مزدلفة) وتُسمى (ليلةُ جمع، والمشعر الحرام) وهي ليلةٌ شريفة أتت بين يومين عظيمين، فقبلها يومُ عرفة، وصبيحتها يوم النحر، نوَّه اللهُ عن منزلتها بذكرها في كتابه في آياتٍ تُتلى إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾[1].

وهذه الآيات لها وقعها وأثرها على النفس، وأظهر ما تكون إذا تلاها الحُجّاج أو سمعوها في ذلك الموطن، حين تُتلى عليهم في صلاة المغرب أو العشاء أو الفجر أو حتى خارج الصلاة، فإنَّهم يتذكّرون معها مِنّة الله عليهم، وقد أفاضوا من عرفات، محتسبين على ربهم أنَّهم قد غُفرت لهم ذنوبهم، وأُقِليت عثراتهم يوم عرفة، واستُجِيبت دعواتهم، فهم من أسعد العِباد في هذه الليلة

(١) [سورة البقرة: الآيات ١٩٨-١٩٩].

وأولاهم بالفرح، فقد منَّ عليهم بالوقوف في عرفة، وشرَّفهم بهذا المبيت في منسك عظيم من مناسك الحجَّ، وفي مكان نامَ فيه الأنبياء والصالحون نومًا مُغايرًا لكل نَومٍ طوالَ ليالي العام، بل طوال ليالي العمر، فمغفرة الذنوب ليست بالأمر الهيِّن، والتجاوز عن الخطيئات من أكبر المِنَنِ التي بَشَّرَ بها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهلَ عرفات، ولذا كان أحرى العباد بالإكثار من شكر ربهم هذه الليلة، هم أولئك الذين منَّ تعالى عليهم بهذه المنّة، وخصَّهم بذاك الوقوف، وهذا المبيت، فيا لله كم سيبيت هذه الليلة خلقٌ كيوم ولدتهم أمّهاتهم أنقياء من الذنوب، طاهرين من الخطايا، قد مُحيت كلُّ خطيئة سُطِّرت في صحائفهم، فاهنأ أيُّها الحاجّ بخير ليلة تمرُّ عليك مذ ولدتك أمُّك، واسعد بخير ليلة في ماضي لياليك.

وفي هذه الليلة وما بعدها يُكثر الحاجُّ من الاستغفار، وهذا يدلُّ على أهميته وفضله، وشدة الحاجة إليه، فانظر كيف يأمرُ اللهُ به الحُجّاجَ وهم قد أدّوا للتوِّ ركن الحجّ الأكبر، ووقفوا في المشعر الحرام ذاكرين ربهم، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ

فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ (١).

وفي الأمر بالاستغفار في مزدلفة بعد أعظم عبادات الحجِّ الإشارة إلى أنَّ العبد مهما تقرّب إلى ربه بعبادات، فيبقى التقصير ملازمًا له، وحاجته ماسَّة للتجاوز عمّا فيها من خلل، يقول الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومنَّ بها على ربه، وجعلت له محلاًّ ومنزلةً رفيعة، فهذا حقيقٌ بالمقت وردِّ الفعل، كما أنّ الأول حقيقٌ بالقبول والتوفيق لأعمال أُخر)** (٢).

والسُنّةُ أن تبيت -أيُّها الحاجُّ- مُبكّرًا، وتُصلي صلاة الفجر في أوَّل وقتها ليتسنَّى لك كثرة الذكر بعدها، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ صلاَّها في أوَّل وقتها ثمَّ بقي ذاكرًا مخبتًا خاضعًا خاشعًا لربه من

(١) [سورة البقرة: الآيات ١٩٨-١٩٩].

(٢) [تفسير ابن سعدي: آية ١٩٩ سورة البقرة]

بعـد صلاة الفجر حتى قاربت الشـمس على الطلـوع، ثمَّ ارتحل إلى مِنًى بعد الإسـفار جِـدًّا، فينبغي لمن أراد اتِّباع السُـنّة والفوز بالأجـر أن يبقـى في مزدلفة هـذا الوقت، يذكر ربه فيـه ويحمده، ويُثني عليه ويدعوه، فإنّ هذا الوقت من مظانِّ إجابة الدعاء.

اُخلُ بنفسـك، واذكُـرْ ربَّك كثيرًا، واسـأله من خيـري الدنيا والآخـرة، وأكثِـرْ من الاسـتغفار، فعلها سـاعة الرحمـة والقبول وتحقيـق المطالـب، والله يُحِبُّ مـن عبده ذكره في هـذا المكان، ولذا نصَّ عليه في كتابه، فعظِّمْ هذا الموقف، واغتنم هذه الفرصة، وتعبّد لله بالطاعة فيه، فيوشك أن تغادره وتتركه.

تأنَّ ولا تسـتعجل في الخروج إلا إذا كان معك نساء وضعفة، فما هي إلا سـاعةٌ من الزمن أو أقل، ثمّ تُشـرق شمس يوم النحر، وربمـا لا تعود إلى هذا المكان في مثل هذا الوقت مرَّةً أخرى فلِمَ العجلة بلا عذرٍ؟!

❋❋❋

الحجُّ ويومُ النحر، أبرك الأعيادِ

فإذا ما أشرقت شمسُ يوم النحر مضى الحاجُّ إلى (مِنًى) مُلبيًا كما فعل نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يسير وهو مستحضرًا أنَّه في أعظم الأيّام عند الله، ففي الحديث: "إنَّ أعظمَ الأيَّامِ عندَ اللهِ تبارَكَ وتعالى يومُ النَّحرِ ثمَّ يومُ القَرِّ"(١).

ويوم النحرِ عيدٌ من أعياد الإسلام الكُبرى، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "يومُ عرفةَ ويومُ النَّحرِ وأيَّامُ التَّشريقِ عيدُنا أهلَ الإسلامِ، وهي أيَّامُ أكلٍ وشربٍ"(٢).

وهو كذلك يومُ الحجّ الأكبر، فعَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: وَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ بَيْنَ الجَمَرَاتِ في الحَجَّةِ الَّتي حَجَّ وَقَالَ: "هَذَا يَومُ الحَجِّ الأَكْبَرِ"(٣).

فهذه فضائل جمّة لهذا اليوم العظيم، فينبغي للحاجِّ معرفتها، واستحضارها في النفس ليعرف الخير الذي ساقه اللهُ إليه، ووفقه

(١) رواه أبو داود، وصحّحها الألباني.

(٢) رواه أبو داود والنسائي والترمذي، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري.

له، وقد جعل كثيرٌ من أهل العلم عيد النحر أفضل من عيد الفطر لكثـرة هذه الأعمال الصالحة فيه، ولأَنَّـه أتى بعد يوم عرفة الذي أعتق اللهُ فيه العباد من النّار.

وفُضِّل هـذا اليوم لِما اجتمع فيه من أعمال صالحة كبيرة من أعمـال الحج، ففيه: (رمـي جمرة العقبة، ونحـر الهدي، وحلق الشـعر أو تقصيره، وفيه طواف الإفاضة، والسـعي لمن لم يسـعَ مـن قارِنٍ ومفردٍ، وسـعي الحـجِّ للمتمتع) فينبغـي للحجّاجِ أن يحرصـوا علـى الإتيان بهذه الأعمال في هذا اليـوم المبارك، فهو خاتمـة العشـر المباركة (خيـر أيّام الدنيـا) والتي ثـواب العمل الصالح فيها أعظم وأكثر.

والسُـنَّة ترتيب هذه الأعمال، فيبدأ برمي جمرة العقبة ضحى يـوم النحـر، ثـمَّ يذبـح هديـه، ثـمَّ يحلق رأسـه، ثم يطـوف بعد الاغتسـال والتطيُّب ولبس أجمل الثياب، محتسـبًا أنّه مُتَّبِعٌ هدي النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا، فإن تيسَّـر لـه فِعْلَهَا مُرتَّبَـةً فهو أكمل وأفضـل، وإن قـدَّمَ وأَخَّرَ فلا شـيء عليـه، ولكنْ فاتـه الأفضل، وإن تيسَّـر له فِعلُ بعضِها وَتَرتَيبُ ما يُمكِنُه تَرتيبُهُ فَعَلَ، وإلا فَعَلَ

ما تَيسَّرَ له دُون تَضييقٍ على نفسه ومن معه.

فـإذا ما وصل (مِنًى) كان أوَّل شـيء يفعله رمي جمرة العقبة، يرميهـا بدون أذى لغيره، أو ضجيج أو صُـراخ، أو عجلة وجلَبة، فعـن قدامة بـن عبد الله وهـو ابن عَمّار قـال: **(رَأيتُ رسـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرمـي الجمرةَ يومَ النحـرِ على ناقةٍ صهباءَ لا ضَرَبَ ولا طَرَدَ، ولا: إِلَيكَ إِلَيكَ)**[1].

فترمـي -أيّها الحاجُّ- جمـرة العقبة وقلبُك ممتلأً شـكرًا لله، معترفًا بفضله عليك إذ وفقك لهذا.

إنّ هذا الشعور للحاجِّ يجعله يُؤدي هذه العبادة بقلب حاضر، مستحضرًا مِنّة الله عليه، وأنّه في عبادة جليلة يُؤديها في يوم عظيم، فابتعد عن الغفلة لتُدرك حلاوة هذه الطاعة.

ثمّ احرص على حلق رأسك لا التقصير، رجاء أن تُدرك دعوة النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنيـل الثواب الأكمـل لهذه العبـادة، فقد دعا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للمحلقين ثلاثًا وللمقصرين مرة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ"**

(١) رواه ابن خزيمة في "صحيحه"

قَالُوا: يَارَسُولَ اللهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: "اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: "اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: "وَلِلْمُقَصِّرِينَ"(١).

وبشّر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ في حلق كل شعرة حسنة، وتكون له نورًا يوم القيامة، فعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وأَمَّا حِلاقُكَ رَأْسَك ؛ فَلَكَ بكلِّ شَعْرَةٍ حَلَقْتَها حسنةٌ، وتُمْحَى عَنْكَ بِها خَطِيئَةٌ"(٢).

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وأما حلقُك رأسَك، فإنه ليس من شعرك شعرة تقع في الأرض إلا كانت لك نورًا يوم القيامة"(٣).

فانظر لفضل هذا العمل اليسير.

فإذا حلقتَ رأسك أو قصّرته استشعر أنّك تتقرّب إلى ربك بهذا الفعل، وأنّك ممتثلًا لأمره الذي أمرك به، ومتأسيًا برسولك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنّك في عبادة ترجو بِرْها وخيرها وثوابها.

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) رواه الطبراني والبزّار واللفظ له، وهو في صحيح الترغيب والترهيب.

(٣) صحيح الترغيب.

ثـمّ تطوف في هـذا اليوم (طـواف الإفاضـة) متزيِّنًـا، متطيِّبًا، مرتديًا أحسـن الثياب، فقـد كان هذا هو هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه، تقول عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كُنْتُ أُطَيِّبُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِإِحْرَامِـهِ حِيـنَ يُحْرِمُ، ولِحِلِّهِ قَبْـلَ أنْ يَطُوفَ بالبَيْـتِ)[1]، ولفظ النسـائي: (ولِحِلِّـه بَعدَمـا رَمـى جَمـرةَ العَقَبـةِ، قَبـلَ أنْ يَطوفَ بالبَيـتِ)[2]. وبعـضُ الحجّـاج لا يعتني بهذا، فـلا يحرص على الطـواف هذا اليوم، بل يُؤَخِّرُهُ مع طواف الوداع، وهذا -وإن كان جائـزًا- لكنَّه خـلاف الأفضل والأولى، فحريٌّ بمـن أراد الأجر الأعظم والكمال للحجِّ أن يطوف هذا اليوم متطهّرًا متطيّبًا.

وفي هـذا اليـوم يَفرح الحـاجُّ بفضل الله عليه وقـد أكمل هذه المناسك، وكان قبلُ واقفًا في عرفة، بائتًا في مزدلفة، ذاكرًا الله فيها، فهـذا هو الفرح الحقيقي الباقي لصاحبه، الممتدُّ أجرُهُ وأثرُهُ، قال الله تعالـى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[3]. وأمَّا الفرحُ الدُّنيويُّ فإنَّهُ مُؤقَّتٌ ومُنقطع،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه النسائي.

(٣) [سورة يونس: الآية ٥٨]

ولـذا ينبغي عليـه أن يفعل هـذه الطاعات وهو فرحٌ مسـرورٌ مغتبـطٌ بهـذه النعمة، فإذا رمى وحلق أو قصَّر شـكر الله أَنْ تحلَّل التَّحلُّـل الأول، وإذا طاف زاد شـكره لله أنْ أعانـه ووفَّقه لإكمال عظائِمِ أعمال الحج، وتحلَّلَ التَّحَلُّلَ الثانيَ الذي يَحِلُّ له بَعدَهُ كُلُّ شـيء مِن مَحظُوراتِ الإحرام، فاهنـأْ أيُّها الحاجُّ بهذا الفضل من ربك، واحمده حمدًا كثيرًا.

❊❊❊

الحجُّ ورميُ الجِمار، والثواب المدّخر

من عبادات الحجِّ العظيمة (رميُ الجِمار) وقد جاءت بفضائله الآثار، فقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ رمي الجِمار من مُكفِّرات كبائـر الذنوب، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "وأما رميُك الجمارَ؛ فَلَكَ بكلِّ حصاةٍ رَمَيتَها تكفيرُ كبيرةٍ منِ الموبقات"(١).

وبَشَّـرَ أنّ رمي الجِمار نورٌ لصاحبه عندما تشتدُّ الظلمات يوم القيامة، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "وإذا رميتَ الجِمارَ؛ كان لك نورًا يومَ القيامةِ"(٢).

بل لقد عظَّم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جزاءَهُ حتى أخبر أنّه إنَّما يوفّى صاحبه ثوابه يوم القيامة لكثرته ونفاسته، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "وإذا رمى الجِمارَ لا يَدري أحَدٌ ما له حتى يتوفَّاهُ اللهُ يومَ القيامَةِ"(٣).

وفي هذا من البشارة مِنْ كثرة الأجر ما فيه.

---

(١) رواه الطبراني، والبَزَّار واللفظ له، وهو حديثٌ حسنٌ.

(٢) رواه البزار، وهو في السلسة الصحيحة.

(٣) رواه أحمدُ وأبو داود

فهـذه الآثـار تُبيِّن بجلاء فضل هـذه العبـادة العظيمة، فثوابها مدَّخرٌ يناله أهلها كأكمل ما يكون يوم القيامة.

ورمـي الجمرات ليـس كما يظنُّ البعض أنَّـهُ رمي حصاة إلى جهة فحسـبُ، أو عبادة لا حكمة من ورائها، بل هي عبادة جليلة القدر، فيها حِكم كثيرة.

ومـن أعظم حِكـم رمي الجِمـار (إقامة ذكـر الله تعالى) فعن عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إنَّما جُعِلَ رَمْيُ الجِمارِ والسَّـعْيُ بينَ الصَّفا والمروةِ لإقامةِ ذِكرِ اللهِ"**(١). فالله هو الذي أمر، فيستجيب المؤمن لأمر ربه ويمتثله، وهذا الامتثال ممَّـا يُحِبُّهُ اللهُ من عبده، فيفعله وإن لم تظهر له حِكمتُهُ، لأَنَّه عبدٌ، وحق العبد طاعة سـيده، وسـيُثِيبُهُ عليه أعظم الثواب في الآخرة، ويزيدالثواب مع شـدّة الإخلاص، واحتساب الأجر، واستشعار أنَّهـا عبـادة لله، أمَّا الثـوابُ المُعجَّـل في الدنيا، فهو مـا يكون مِنْ سكينة وسرور وطمأنينة يشعر بها كلُّ من أدَّى هذه العبادة وغيرها على الوجه الأكمل.

(١) رواه ابن حبان، وهو حديثٌ صحيح.

وفيه التأسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي رمى الجمرات في هذه الأيّام، وأمر باتِّباع هديه في المناسك كلها، وهذا الاتِّباع ينال من ورائه المؤمن الأجر العظيم.

وفي رمي الجمرات إشارة لعداوة الشيطان ومراغمته، والإعلان عن عداوته، فعَنِ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، قال: (**لَمَّا أتى إبراهيمُ خليلُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ المناسَك، عَرَضَ له الشيطانُ عند جَمْرةِ العَقَبةِ، فرماه بسَبْعِ حَصَياتٍ حتى ساخَ في الأرضِ، ثُمّ عَرَضَ له عند الجَمْرة الثَّانيَة، فرماه بسبْعِ حَصَياتٍ حتى ساخ في الأرضِ، ثم عَرَضَ له في الجَمْرة الثَّالثةِ فرماه بسَبْعِ حَصَياتٍ حتى ساخَ في الأرض. قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الشيطانُ تَرْجمونَ، ومِلَّةَ أَبيكم تَتَّبِعونَ**)[1].

ومراغمة الشيطان مقصدٌ من مقاصد الشريعة، وأمرٌ من جملة الأوامر التي أمر اللهُ بها.

وينبغي لمن يُؤدي هذه العبادة أن يكون حاضر القلب فيها من حين أن يخرج ويسير تجاه الجمرات، فيحتسبُ هذه الخطوات

(١) رواه الحاكم والبيهقي، وهو في صحيح الترغيب.

التـي يخطوهـا، ويتذكَّر فضل الله عليه في تيسـير سـيره لأداء هذا النُّسك، ويمضي مُكبِّرًا، ذاكرًا ربَّه، فإذا وصل وبدأ بالرمي، أحضر قلبه مع كلِّ حصاةٍ يرميها، واستحضرَ أنَّه في عبادة وقُربةٍ يتقرّبُ بها إلى ربه، مُحتَسِـبًا أجرها، ويتذكر الفضل الوارد فيها، فهذا أدّعى لأدائها بانشراح صدر وفرح، ففي كل رميةِ حصاةٍ تكفيرُ كبيرة من كبائـر الذنوب، وتكون له نـورًا يوم القيامة، ويوفيه الله بها أجرًا لا يخطر له على بال، كما تقدَّمت أدلة ذلك من الأحاديث.

وانظر لرحمة الله عبادَه، فيرمي الحاجُّ جَمَرات يسيرات، في فعلٍ لو فعله في غيرِ هذا الموطن لوُجِّهت له سهام النقد، أو ربما كان فيه أذية لغيره، لكنَّه في هذا الموطن عبادة جليلة، وقُربةٌ من القُرُبات.

فإذا ما انتهى من رميه الجمرة الصغرى تقدَّم ووقف يدعو ربه طويلًا، ويستحضر أنَّه في مَوطنٍ من مواطن الإجابة، وفي ساعة من سـاعات إفاضة الخيرات على أهل هذه الطاعة، ثمّ يرمي الجمرة الوسـطى ويتقدَّم ويدعو ربه طويلًا، فكم من دعواتٍ استُجيبت للداعين هنا، وكم من مطالبَ تحقَّقت للسائلين، وشرور اندفعت

عنهم، مع استحضار أنّ الدعاء لا يضيع أبدًا، ففي الحديث الذي رواه الإمـام أحمد وغيره: "مَامِن مُسـلِم يَدعُـو بِدَعوَةٍ لَيسَ فِيهَا إِثـمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِم، إِلاَّ أَعطَاهُ اللهُ بِهَا إِحدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَـهُ دَعوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِـرَةِ، وَإِمَّا أَن يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا" قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: "اللهُ أَكْثَرُ"(١).

ثـمَّ يرمـي الجمرة الكبـرى، ولا يقف عندهـا ولا يدعو؛ لأنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هكذا صنع.

يفعل كلَّ ذلك وهو يستشعر أنَّه متأسٍ بنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وانظر لشدة امتثال الحُجَّاجَ لأمر نبيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، **وكمال تأسيهم به،** فهم إنَّما يدعون ربهم عند الجمرة الصغرى والوسطى فقط، أمَّـا الجمرة الكُبرى فلا يقفون عندهـا ولا يدعون، وهكذا هم أَتبَاعُ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتفون أثره في كل عبادة، وفي الفعل والـترك، وكلُّ هذا عنـد الله بمكان، فاحـرص على اتِّباع السُـنّة، واقتفاء الأثر، فإنّما الشريعة دليل وآثار ونصوص لا أراء وأذواق.

(١) رواه الإمام أحمد وغيره.

وينبغي للحجُّاج أن يحتسبوا هذا الاتِّباع ليعظم أجرهم، حتى إذا ما انتهى الحاجُّ منْ رميه، وعاد إلى مكان إقامته رجع بقلبٍ شاكر، ولسانٍ ذاكر، حامدًا ربه على هذا التوفيق، شاكرًا مولاه على هذه المِنّة والاصطفاء.

وفي رمي الجمرات -كما هو سائر مناسك الحج- تظهر عبودية العباد، وكمال إذعانهم لربهم، وصَغَارهم وذلتهم بين يديه، فهم يرمون في زمن محدّد، ومكان محدّد، بعددمحدّد، فيجتمع الملايين على ذلك ليوقن العباد أنَّ ربهم واحد، وأنَّ مصدر التشريع واحد، فلا يتخلَّف منهم متخلِّف، ولا يستنكف منهم أحدٌ عن الاستجابة لأمره لأنَّهم موقنون بحاجتهم إلى ثواب هذه الأعمال، وكذلك يخافون مخالفته، فهنيئًا لأنفسٍ استجابت لأمر ربها، واتَّبعت هدي نبيها عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيه.

❋❋❋

المبيتُ بمنى في ليالي التشريق

جعل الله من مناسك الحجِّ المبيت في (مِنًى) ليالي أيام التشريق، وهي يوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة، وهي أيَّامٌ مباركة وزمان فاضل، نَوَّهَ الله بذكرها في كتابه في آياتٍ تتلى إلى يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾ (١).

وهذا يدلُّ على فضلها كُلِّها، وجاء فضل يوم الحادي عشر وهو يوم القَرِّ على الخصوص في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ أفضلَ الأيَّامِ عندَ اللهِ يومُ النَّحرِ ثمَّ يومُ القَرِّ"(٢).

وسُمِّي هذا اليوم (يومَ القَرِّ)؛ لأنَّ الحَجيجَ يَقِرُّونَ فيه بمِنًى بعدَما أدَّوا أعمالَهُم، وليس لهم أن يُغادِروها في هذا اليومِ، فهو يومٌ فاضل يُضاعف فيه أجر العمل الصالح.

---

(١) [سورة البقرة: آية ٢٠٣]

(٢) أخرجه أبو داود واللفظ له والإمام أحمد.

ويقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن أَيَّام التَّشريق: "يومُ عرفةَ ويومُ النَّحرِ وأيَّامُ التَّشريقِ عيدُنا أهلَ الإسلامِ، وهي أيَّامُ أكلٍ وشُربٍ"(١).

فأيام التشريق أَيَّام عيد وسرور، يَشعُر بها أهل مِنى حين يتذكّرون أنَّ الله قد أَتمَّ عليهم النعمة، وأكمل لهم الفضل، فقد تقرَّبوا إلى رَبِّهم بغالب أعمال الحجِّ، فيشعرون بتوفيق الله لهم، ويملأ السرور قلوبهم بهذا الإتمام، وانظر إلى وجوه أهل (مِنًى) لترى البِشر عليها، وهذه من ثمرات الطاعات في الدنيا، وهي عاجل بشرى أهل الإيمان، ومن الفرح المعجَّل لهم قبل الفرح بإذن الله يوم القيامة.

وهذه الأَيَّام هي آخر أَيَّام موسم الحجِّ حَثَّ الله فيها على ذكره على الخصوص كما تقدَّم في الآية، ويقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن فضل عبادة الذكر هذه الأيّام: "أَيَّامُ مِنَى أَيَّامُ أَكْلٍ وشُربٍ وذِكْرٍ للهِ عَزَّوَجَلَّ"(٢).

---

(١) رواه أهل السنن.

(٢) أخرجه مسلم.

والأمرُ بالذكر عند انقضاء النسك فيه معنى بديع، وهو أنّ سائر العبادات تنقضي ويفرغ منها، وذكر الله باق لا ينقضي ولا يفرغ منه، بل هو مستمر للمؤمنين في الدنيا والآخرة، وقد أمر الله تعالى بذكره عند انقضاء الصلاة، فقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[1] وعقب الحج أمر الله بذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[2].

ففي هذا دلالة ظاهرة على فضله وأهمِّيَّته، وارتباط العبادات به لرفعته، وعُلُوِّ شأنه، فينبغي للحاجِّ أن يعتني بهذه العبادة، فيُكثر منها، ويُعلن بها في مكان إقامته، وفي ذهابه لرمي الجمرات، وفي الطرق والأسواق، وفي مجامع النّاس، وبإحياءِ هذه السُّنَّة يَفُوزُ العبد بالأجر العظيم.

فاغتَنِم هذا الوقت للإكثار من ذكر الله، فذكر الله جعله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أفضل الأعمال، بل جعله خيرًا من الجهاد في

(١) [سورة النساء: آية ١٠٣]

(٢) [سورة البقرة: آية ٢٠٠]

سبيل الله، وأفضلَ من الصدقة بالمال، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "ألا أنبِّئُكُم بخيرِ أعمالِكُم، وأزكاها عندَ مليكِكُم، وأرفعِها في درجاتِكُم، وخيرٌ لَكُم مِن إنفاقِ الذَّهبِ والورقِ، وخيرٌ لَكُم من أن تَلقَوا عَدُوَّكُم فتَضربوا أَعناقَهُم ويَضربوا أَعناقَكُم؟" قالوا: بلَى. قالَ: "ذِكْرُ اللهِ تَعالى" قالَ معاذُ بنُ جبلٍ: "ما شَيءٌ أنجى مِن عذابِ اللهِ من ذِكْرِ اللهِ"[1].

وجعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذكرَ عِوضًا عن الحجِّ والعمرة والجهاد في سبيل، وبكل ذلك وردت النصوص، وينبغي للذاكر أن يتدبَّرَ ما يقوله من أذكار ويفهم معناه، فذلك أدّعى للخشوع والتأثُّر به، ومن ثَمّ صلاح القلب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب واللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده)[2].

وجاء في رواية النسائي يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: "أيام مِنى أَيَّامُ أكل وشرب وصلاة"[3] فنَصَّ الحديث على الصلاة -هنا-، ففيه

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) [الفوائد: ٢٧٩]

(٣) رواه النسائي

الحثُّ على الإكثار من صلاة النافلة في هذه الأَيَّام، ويعظم فضلُها في هذا المكان إذ إنَّ مشعر مِنى من الحرم، فثواب الصلاةُ فيه بمئة ألـف صلاة، وهذا شـامل لصلاة الفريضة والنافلـة كما قَرَّر ذلك المُحَقِّقونَ من أهل العلم، فاغتنمْه بكثرة صلاة النافلة، خصوصًا أَنَّك في أواخر أَيَّام حَجِّكَ، وقد هُيِّئَتْ للكثير الأجواءُ والأسبابُ المعينةُ على الطاعة.

وكم تـرى مِـن مُوَفَّقِيـنَ يُمضُون غالـب وقتهـم بالطاعات، فتجدهـم حريصين على صـلاة الليل، وصلاة الضحـى، وإتيانِ الصـلاة مُبَكِّرينَ، مع الحرصِ على الإكثارِ مِن تلاوة القرآن وذكر الله تعالى.

وإنَّـك إذا تأمَّلـت في هذا التشـريع للعبـادة هذه الأَيَّـامَ وجدتَ الرحمـة مـن الله فيه ظاهرة، والفضـلَ منه بَيِّنٌ، فالجالسـون في مِنًى أَيَّامَ التشـريق ليس عندهـم كثيرُ عَمَلٍ، وإنَّمـا الواجب عليهم رميُ الجمرات، والمَبيتُ بمِنًى فقط، ولعل من الحِكَم في هذا -والله هو الحكيم العليم- ما يكون فيه من الفُسحة في الأعمال الصالحة هذه الأَيَّام للحُجَّاجِ من الطواف والسعي في مكة، إذ لو اجتمعوا للطواف

والسعي في يوم واحدٍ لكان فيه من المشقة ما هو معلوم، وليكثرَ العمل الصالح من الحُجَّاج في وقتهم هذا، فينتفعوا به، ويكونَ لهم ذُخرًا، فلله الحمدُ بجميع المحامد لا نُحصي ثناءً عليه.

والواجب على الحاجِّ البقاء أَكثَرَ اللَّيلِ في مِنًى، ويُسَنُّ عدم الخروج منها إلا لحاجة، فهذا هو هديُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَجَّتِهِ، وعليه احتسابُ بقائه، فإنَّ الأجرَ يزيد مع الاحتساب.

ومن العبادات هذه الأَيَّامَ إيناس الرفقة، وملاطفة كلَّ من تلقى وتُعاشِر وتجاور في هذا المشعر، ونَشرُ السلام، ومقابلةُ النَّاسِ بالوجهِ الطَّلقِ والتَّرحابِ والدعوات الطيبات، وإظهارُ المحبة والمَوَدَّةِ لهم، وإفادتُهم بما تَستطيع، ومُعاونتُهم قدرَ الاستطاعة، فهذه عبادات كثيرة، يوفق لها الموفق في خير مكان وخير زمان.

ونقل ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عن السلف استحبابَ كثرةَ الدعاء أَيَّامَ التشريق خصوصًا بقَولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾[1] قال: **(قد روى زياد**

(١) [سورة البقرة: آية ٢٠١]

الجصاص عن أبي كنانة القرشي أنه سمع أبا موسى الأشعري يقول في خطبته يوم النحر بعد يوم النحر ثلاثة أيام التي ذكر الله الأيام المعدودات لا يُردُّ فيهنّ الدعاء، فارفعوا رغبتكم إلى الله عَزَّوَجَلَّ)[1].

والدعاء قد جاءت الإشارة إليه في أواخر آيات الحجِّ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾[2] فاغتنم هذا الفضل أيُّها الموفق، فالدعاء شأنه عظيم، خصوصًا في هذه الأوقات والمواطن.

❋❋❋

(١) [لطائف المعارف: ٢٩٠]

(٢) [سورة البقرة: الآيات: ٢٠٠-٢٠٢]

الحجُّ وطواف الوداع، ورجاء القبول

ما أعظم البشرى من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بَشَّرَ من يطوف بالكعبة للوداع بقوله: "وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالبَيتِ إِذَا وَدَّعْتَ، فَإِنَّكَ تَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ"(١).

وما جاء في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "وَأَمَّا طَوَافُكَ بِالْبَيْتِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ تَطُوفُ وَلا ذَنْبَ لَكَ، يَأْتِي مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْكَ، فَيَقُولُ: اعْمَلْ فِيمَا تَسْتَقْبِلُ؛ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى"(٢).

فانظُرْ لتوالي فضل الله على عباده الحُجَّاج، فيبدأ الحاجُّ حجَّهُ بالبشارة من الله بمغفرة الذنوب، والبشارة بالجنَّة، ثمَّ تتوالى عليه البشائر مع كلِّ مَنسَكٍ من مناسك الحج، حتى إذا ما أَتَمَّ نُسُكَهُ وطاف بالبيت طواف الوداع، جاءته هذه البشرى: (فَإِنَّكَ تَطُوفُ وَلا ذَنْبَ لَكَ، يَأْتِي مَلَكٌ حَتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْكَ، فَيَقُولُ: اعْمَلْ فِيمَا تَسْتَقْبِلُ؛ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى)

---

(١) رواه الطبراني، وحسَّنَهُ الألباني في صحيح الترغيب.

(٢) رواه البَزَّارُ والطبراني، وحسَّنَهُ الألباني في صحيح الترغيب.

فـأيُّ فضلٍ أعظـم من هذا الفضل، وأي عطاءٍ أوسـع من هذا العطاء؟!

فهـل عرفـتَ فضل الحجِّ علـى الحقيقة، وأيقنـت برفعة هذا الفرض العظيم على التمام؟!

إنَّ استحضار هذه الفضائل، وتذكُّرِ هذه الرَّحَمات من الرحمن في أثنـاء الطـواف بالبيت، لَمِمَّا يُوجـب مَحبَّتَهُ تعالـى، والاعترافَ بفضله، والشُّكرَ على إحسانه، وما أجدرَ الحاجَّ بعدها أن يعودَ إلى بلده وهو عازمٌ أَشَدَّ العزم على استدامة الطاعة، والإقامة على القربة، والبعد والنفور من سخط الله الذي أحسن إليه هذا الإحسان! وقولُهُ: "اعْمَلْ فِيْمَا تَسْـتَقْبِلُ..." إشـارةٌ إلى لزوم الحياء من الله، ووجوب إلـزام النفس بالثبات على الجادَّة، وأخذها بالعزيمة لتستقبل قادم الأَيَّام وما بقي من العمر في الطاعة وفعل الخيرات.

تَقَبَّل الله منك، ووفقك بقية عمرك، وأورثك الفردوس الأعلى من الجنة.

❋❋❋

الحج وعبودية الذكر

إنّك إذا تأملت الآيات في ذكر الحجّ والأحاديث، تجد الحثَّ فيها على ذكر الله بيّنًا واضحًا، قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[2].

يقول ابن القيم عن الذِّكر في الحجّ: (هو رُوح الحجّ ولبُّه ومقصوده، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله")[3].

---

(١) [سورة البقرة: الآيات ١٩٨-٢٠٠]

(٢) [سورة الحج: الآيات ٢٧، ٢٨]

(٣) [مدارج السالكين: ٢/ ٣٩٩]

فالحثُّ على ذكر الله في الحجِّ جاء في جميع مواطنه، فإذا أحرم الحاجُّ ذكر الله بالتلبية وأكثر منها، وأمضى وقته بها حتى يبدأ بالطواف، وإذا طاف انشغل بالذكر والدعاء حتى ينتهي منه، وإذا بدأ بالسعي بدأ بشهادة التوحيد والتكبير والدعاء، وكان في سعيه كله ذاكرًا ربَّه حتى ينتهي منه.

وخير ما يمضي به الحاجُّ وقته في يوم التروية ويوم عرفة هو الذكر والدعاء، وهكذا في مزدلفة، فقد ذكر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه حتى أسفر جدًّا، وأمر الله بذكره في هذا الموطن على الخصوص.

ويمضي إلى الجمرات ملبيًا، ويرميها مُكبِّرًا، ويبقى في مِنى أيَّامَ التشريق ذاكرًا ربه كثيرًا.

كلُّ هذا وغيره يجعلك توقن بأهمية الذكر في عبادة الحجّ، وأنّه في المنزلة العليّة منه، وأنّ الله أحبّ من عباده أن يذكروه كثيرًا فيه، فلذا جعله في جميع مناسكه، وحثّ عليه، ورتّب عليه أعظم الأجور.

إنّ الحـاجَّ المعتني بشـأن الذكر قـد علَّق قلبَه بربـه، وأثنى به عليـه، وعرف مـن خلاله فضله، وكان ذكرُه الكثير سـبيلًا لإتقان هـذه العبـادة، وإيقاعها على أكمل وجّه، فللذكـر تأثيره الكبير في حضـور القلب في العبـادة، ووجدان حلاوتهـا، خصوصًا إذا كان الذاكر حاضر القلب فيه.

وأعظم الذكر شهادة التوحيد (لا إله إلا الله) فيلْهج بها اللسانُ كثيرًا، لتُذكّره بعظمة الله ووحدانيته، ووجوب إخلاص العمل له، فيتوجّـه بقصده إلى الله، غير ملتفت لغيـره، وهذا أعظم ما يكون منـه، فالإخـلاص في العبادة هو لُبّها، وما أُمـر العبادُ إلا بالتوحيد وقصد الله في أعمالهم.

وإذا سبّح الله نزّهه عن كل وصف لا يليق به، ووَصَفَه بالكمال المطلق.

وإذا حمِـده تذكّر فضلـه عليه، وأثنى عليه بما هـو أهلُه، فهو الذي تفضّل بما شرع، وهو الذي أحسن بتيسير هذه العبادة، وهيأ أسبابها، وسهّل طريقها، فله الفضل أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

وما تقرّب المتقربون لربهم بمثل دوام الذكر، ولذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وممَّا هو كالإجماع بين العلماء، أنّ أفضل الأعمال ذكر الله).

والذكرُ وسيلة لحياة القلب، وتهذيب النفس، وتزكية الفؤاد، ويجلب لقلب الذاكر الفرح والسرور، والراحة والطمأنينة، ويزدادُ معه حبّ الله، وحبّ طاعته، ويجد الذاكرُ في وقته من البركة ما لا يجده غيره، ويذوق من لذة العبادة ما لا يدركه سواه، ولذا يفتقد كثيرٌ من الحجّاج لذة الحجِّ لتقصيرهم في عبادة الذكر.

وكثرة الذكر تحتاج إلى تعويد النفس وتصبيرها وحبسها عليه.

ومن أعظم الذكر تلاوة القرآن، فينبغي للحاجِّ أن يكون له شأن آخر معه، ولقد كان كثيرٌ من السلف يوصون بختم القرآن في الحجّ، وورد عن جمع منهم أنّهم كانوا يختمون القرآن في حجّهم، ولهم في ذلك أحوال عجيبة.

وختْمُ القرآن في الحجّ أفضل من غيره لفضل المكان وشرف الزمان، ولأنّ الحاجّ في حال الإحرام، وهو أمر يسير لمن عزم عليه، وجدّ واجتهد، فاحرص على هذا أيّها الموفق.

ومن تأمّل في أحوال بعض الحُجّاج يرى التفريط ظاهرًا في تضييع الأوقات، والغفلة عن ذكر الله، فينبغي الحذر من هذا، وأخذ النفس بالجديّة في هذا الشأن، فالحاجُّ إنّما خرج من بيته يبتغي وجّه ربه ويرجو فضله، وهو في أماكن مباركة وأحوال شريفة، ينبغي أن يكون فيها شحيحًا بوقته، غير مضيّعٍ له، وأعظم سبيل لإدراك ذلك هو كثرة الذكر، فبه -كما تقدّم- يكمل الحجّ، ويكثر الأجر، وتعظم العبادة، وتقع الموقع الأمثل منها، ولا يعني ذلك عدم الترويح عن النفس، ومؤانسة الرفقة، وملاطفة الحُجّاج، وإنّما المقصود العناية بشأن الذكر في هذا النسك.

وكثرة الذكر للحاجِّ أحفظ لحجّه، وأسلم للسانه من كثرة القيل والقال، وفضول الحديث، وإذا انشغل الحاجُّ به سلِم من سقطات اللسان وتبعاتها، وعوفي من آثام الكلام.

ولئن تكاسل الحاجُّ عن كثرة الذكر، فلا أقلّ من المحافظة على الذكر بعد الصلاة، وأذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم، وأذكار المناسبات، ونحوها من الأذكار المؤقتة، ولعل الحجّ

يكون فرصة وسبيلًا للتعوّد عليه، والإكثار منه على الدوام، فيفوز الحُجّاجُ بصفة الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

❊❊❊

الحجُّ وعبودية الدعاء

تفضّل اللهُ على عباده بفتح باب الدعاء لهم، ورغّبهم في المسألة ووعدهم بالإجابة، وبيّن لهم ثمرات الدعاء التي لا منتهى لها، ومن مواطن عبادة الدعاء: الحجّ ومناسكه.

والدعاء بذاته عبادة عظيمة، وهو من أشرف مقامات العبد، فلو لم تكن فيه إجابة للسائلين -وهذا محالٌ- فإنَّه عبادةٌ كريمة، موجِبة لرضوان الله عن عبده، ففيه من العبوديات الشيء الكثير، إذ فيه تحقيق التوحيد، والاعتراف بالحاجة لله، وإظهار الفقر إليه، واليقين بملكه لكل شيء، وأنّ كل عطاء منه، وكل فضل بيده، وكل نعمة هو موليها، وكل خير هو من يأتي به، وكل شر هو من يدفعه، وفيه إظهار الفقر والحاجة لله، والاعتراف بفضله، واليقين بكرمه، والإيمان بسعة سمعه وبصره وإحاطته، والثقة بكثرة عطائه، وكمال صفاته، فهو يسمع الداعين على كثرتهم وكثرة دعواتهم، واختلاف ألسنتهم ولغاتهم، وتعدّد مطالبهم وحاجاتهم، وكماله بمعرفة استحقاقهم للإجابة، وإحاطته بنيّاتهم وقصدهم واستحقاقهم، فالعيش مع هذه الصفات يجعل الداعي

يتلذّذ به، ويزداد يقينه بعظمة ربه، وإحياء هذه العبادات في القلب عند السؤال، من أنفع ما يكون للداعي، ومن أعظم أسباب الإجابة، وهذا ما ينبغي للداعي ملاحظته عند دعائه.

والحجُّ ومواطن العبادة فيه فرصة عظيمة للإكثار من الدعاء، واغتنام أسباب الإجابة ومظانّها، فالحجّاجُ وفد الله الموعودون بإجابة دعائهم، والله لا يُخلف وعده، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **"الغازي في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والحاجُّ، والمعتمِرُ وفْدُ اللهِ، دعاهم فأجابوهُ، وسألُوهُ فأعطاهم"**(١).

فلذا ينبغي للحاجّ أن يعتني بشأن الدعاء، ويجعله في كلِّ منسك من مناسك حجّه، ويستعدّ له بحفظ ما ورد في القرآن والسُنّة، فدعوات الكتاب والسُنّة من أجمع الدعوات وأنفعها، فيحفظ الحاجُّ ما استطاع حفظه منهما، أو يقتني كُتب الأدعية ويجعلها في دعائه، وكذلك الدعاء بما شاء من حوائجّه الخاصّة.

ويغتنم رقة القلب إذا أقبلت، ودمعة العين إذا سالت، ورجاء القلب إذا عظُم، ويدعو لنفسه ولغيره، فإنّ من دعا لغيره بُشّرَ

(١) رواه ابنُ ماجه، وهو في صحيح الجامع.

بتأمين الملَك ودعائه له.

وهناك ستةُ مواطن في الحجِّ على الخصوص، ينبغي للحاجِّ اغتنامها في الدعاء، وهي: (على الصفا، وعلى المروة، ويوم عرفة، وفي مزدلفة، وعند الجمرة الصغرى، والجمرة الوسطى بعد رميهما)

يقول لي أحد الفضلاء: إذا رافقنا الشيخ -وذكر اسمه- في العمرة تعجّبنا من طول دعائه على الصفا والمروة، فربما بقي نصف ساعة يدعو على الصفا، وكذا على المروة في كلِّ شوط.

قلت: هذا يدلّ دلالة واضحة أنّه ما زال في زماننا عُبّادٌ قد تعلقت قلوبهم بربهم.

وتقولُ إحدى الأمهات لولدها: يا بُنيَّ، ادع الله عند الصفا؛ فإنّي ما دعوتُ الله عند الصفا بدعوات إلا استجاب الله لي.

أمَّا الدعاء في عرفة، فهو خير الدعاء بمنطوق حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **"خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك**

له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير"[1].

فينبغي العناية به والتفرّغ له، والحرص على كل دقيقة من دقائق هذا اليوم المشهود، وقد تقدَّم الحديث عن يوم عرفة والدعاء فيه.

وكذلك في مزدلفة، خصوصًا بعد صلاة الفجر حتى تُسفر الشمس؛ فهو من مواطن الإجابة، فكم استُجيبت فيه من مطالب وخيرات، وصُرفت فيه من شرورٍ وفتنٍ.

وكذلك عند رمي الجمرة الوسطى والصغرى أيّام التشريق، فلا تستعجل أيّها الحاجُّ، وابقَ قدر استطاعتك، فيوشك أن ينتهي حجُّك، وتنقضي هذه الأيَّام المباركة، وتُغادر هذه المواطن المشهودة، وأيقن بإجابة دعائك؛ فأنت تدعو الكريم، يقول أحدُهم: دعوتُ الله عند الجمِرات بدعوة، ووالله لم ينته شهر ذي الحجة إلا تحقّقت.

ويقول أحد الإخوة: دعوت الله عند الجمرة الصغرى والوسطى بدعواتٍ أعلم يقينًا أنّ الله أجابها لي، وشواهد

(١) رواه الترمذي، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب.

الإجابات أكثر مِنْ أن تُحصر.

ومن مواطن الدعاء كما ذكر أهل العلم الطواف والسعي، وتقدّم ذكر الآثار فيها، خصوصًا الدعاء بين الركن اليماني والحجر الأسود: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾[1]. فيقولها بقلبٍ حاضر، فهي من أجمع الدعوات لخيري الدنيا والآخرة.

وصلاتك موطن من مواطن الإجابة، وآخر الليل وساعات السَحَر، فكم كانت هذه الدعوات سببًا للمغفرة، وتيسيرًا الرزق، وقبولًا التوبة، وقضاء الحوائج، فحريٌّ بالحاجِّ أن يعتنيَ بشأن الدعاء، وأن يلزمه طَوَالَ أَيَّام حجِّه، ولعل الحجّ ممّا يُحيي في النفس كثرتَه والإطالةَ فيه، والتلذُّذَ بالمناجاة، واغتنامَ هذا الفضل من الرحمن.

وعبودية الدعاء في الحجِّ أظهر ما تكون في إخلاص الدعاء لله، والتوجّه له بالقصد، والبعد عن الشرك بجميع أنواعه وصوره، فعلى الحاجِّ ألا يتوجَّه في دعائه إلا إلى ربه، وألا يلتفت بقلبه

(١) [سورة البقرة: آية ٢٠١].

للمخلوقين، فإنّهم لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا، وأن يكون متأسِّيًا بنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه، فقد كان يدعو خاشعًا خاضعًا، مفتقرًا لربه، مظهرًا حاجته وفاقته لمولاه.

ولْيحذرْ من التعدي في دعائه، ولْيستحضر عفوَهُ عمّن ظلمه، ونصيحته للعامَّة والخاصَّة، وحُبَّه الخير لجميع المسلمين، وأن ينالوا ما ينال من الخير، ويندفع عنهم ما يندفع عنه من الشرور، فهذه العبادات القلبية ساعة الدعاء عند الله بمكان، ولعلها بإذن الله من أسباب إجابة الدعاء.

إنَّ كثيرًا من المسلمين بشكل عام قد فرَّطوا في شأن الدعاء، ولم يعتنوا به العناية اللائقة به، ولهذا إذا دعا أحدُهم فإنَّه يدعو على عُجالة، وهذا ما تراه عند كثير من الحُجّاج، فتراه حتى وهو في عرفة لا يدعو إلا قليلاً، وهذا لا شك أنَّه تفريطٌ ظاهر، وحرمان للنفس بَيِّنٌ، فالدعاء باب قد فتحه الله لعبده فلا يغلقه على نفسه بالغفلة وعدم العناية بشأنه.

ولْيحذرِ الداعي أن يدعوَ بقلبٍ لاهٍ، أو يسْتحسرَ ويتركَ الدعاء لتأخّر الإجابة، فكلُّ هذا من الأخطاء في الدعاء، فميقات إجابة

الدعـاء لله وحـده، والله هـو الأعلم بالأنفـع لعبده، ففـوِّضْ أمر الإجابة إلى ربك.

وينبغي للداعي أن يُراعي آداب الدعاء، ويأتي بأسباب الإجابة، **ومنها:** حضور القلب، والبعد عن الغفلة أثناء الدعاء.

ومنها: حسن الظنّ بالله واليقين بإجابته.

ومنهـا: الثنـاء على الله قبـل البدء به، والتوسـل بأسـمائه بما يناسـب كل دعـوة، فتقول: يا رحيـم ارحمني، يـا رزّاق ارزقني، يـا عليم علّمني... وهكذا، ويحرص على تكـرار الثناء على الله، فالقلب عند الثناء يخشع ويخضع ويكون أقرب للإجابة.

ومـن آدابـه: الصلاة علـى النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوّل الدعاء وآخره.

ومن آدابه: تكرار المسألة، والإلحاح فيها.

وهنا أشير إلى مسألة مهمة في قضية الدعاء، وهي: أنَّ إجابات الله لدعـوات عباده تتنـوّع، فتارة تقـع عينُها كما دعـى صاحبُها، وتارة تتأخّر لحكمة يفوت السائلَ معرفتها، وتارة تقع ولكن بغير

المطلـوب، وتارة تكون صَرفًا لشـرٍّ عنه، وتارة يدَّخرها للسـائل ليجدَهـا أحـوج ما يكـون يـوم القيامـة، فالفضل للدعـاء ثابت، والعطـاء مـن الله واقـع لا محالة، ولكنّـه عليم حكيـم، أعلم بما يصلح لعبده، وبما هو أنفع له.

❊❊❊

الحجُّ والتوبة والاستغفار

الحاجُّ إلى بيت الله الحرام إنّما أخرجه من بيته استجابته لربه الذي أمره بذلك، فقد أمر اللهُ خليلَه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يبنيَ البيت، ويؤذن في النّاس بالحجِّ، فاصطفى اللهُ من شاء من عباده لهذا النسك، ووفقهم للاستجابة لهذا النداء وهم في أصلاب آبائهم، ولبَّوا هذا النداء، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[1].

ويحملُ الحاجُّ إلى بيت الله الحرام -أيضًا- الرغبة في نيل ما ورد فيه من فضائل، فقد قرأ ما أعدَّه الله من ثوابٍ للحجّاج، من مغفرة الذنوب كلها، والوعد بالجنّة، فطمعت نفسه لإدراك هذا الفضل، وتاقت روحُه للحصول على هذا الخير، وكثيرًا ما كان الحجُّ موعدًا لتوبة التائبين، وإنابة المخبتين، وعودة الشاردين، ورجوع النادمين.

(١) [سورة الحج: الآيات ٢٦-٢٨]

لقد رأوا فضل الله عليهم بالتوفيق لهذه العبادة، وتيسير الأمور لهم بالوصول إلى مواطن الرحمة والخيرات، وتذكّروا مِنّته عليهم بتسهيل هذا الفرض، وتهيئة أسبابه وتيسير سُبله.

ورحمة الله ظاهرة في الحِّج، فيُقبل الحاجُّ عليه، وقد امتلأت صحيفته بالذنوب، واسودَّت بالخطايا، ويبقى في الحجِّ أيامًا معدودات، فتُمحى تلك الخطايا، وتُغفر تلك الذنوب.

فأي فضل أعظم من هذا الفضل!؟

وأيُ كرامة أشرف من هذه الكرامة!؟

فحقٌ على كل قاصد للحجِّ أن ينوي التوبة النصوح سواءٌ كان مسرفًا على نفسه في الذنوب -وهو أولى النّاس بذلك- أو عنده ذنوبٌ لا يزال مُصِرًّا عليها -ولا يكاد أحدٌ منّا ينفكُّ عن الذنب- أو طالبًا لمغفرة ربه وفضله، وكلُّ الحجيج طالبون ذلك، ولنوقن أنّ حق الله على عباده عظيم ولا يوفيه أحد.

ومواطن التوبة للحُجَّاج كثيرة، فمنهم من ينوي التوبة من حين عزمه على الحجّ، ومنهم من ينويها من بداية رحلته، ومنهم

من يوفق لها بعد طوافه وسعيه، ومنهم من يسمع كلمةً وموعظةً فينتفع بها، وتكون سببًا لتوبته، وأكثر ما يكون من توبات في يوم عرفة، حين تخشع القلوب، وتُذرف الدمعات، وتتوجّه النفوس الصادقة إلى الله بطلب الإنابة والمغفرة، فيجعل اللهُ فيها حُبَّ التوبة، فترى العبد بعد الوقوف بعرفة قد أقبل على ربه، مستغلًا يوم النحر وَأَيَّامَ التشريق بمزيد اجتهاد، مكثرًا من دعاء ربه أن يربط على قلبه، ويُثبته على الهداية والاستقامة، ومنهم من يُقبل على ربه بعد دعوات صادقات يدعوه بها عند الجمرات، بل ربما لا يوفق البعض للتوبة إلا في طواف الوداع، وهذا من رحمة الله بعبده، فإنّ لله نفحاتٍ إذا أصابها عبدَه سعد سعادةً لا يشقى بعدها.

فمثل هؤلاء ترى أحدَهم بعد حجِّهِ كأحسن ما أنت راءٍ من مؤمن تقي، قد أدّى فرضه، وقام بحق ربه، مُجتنبًا معاصيه، فيُعينه ربُّهُ ويسدِّدُه، ويصرفُ عنه الشُّرُورَ والفتن حتى يلقى ربه وهو راضٍ عنه، وكلُّ هذا من توفيق الله له.

إنّ الطاعـات التي يُؤدِّيها الحـاجُّ على أكمل وجه، ومـا يكون مـن دعاءٍ صادقٍ بإخـلاصٍ وإخباتٍ بين يـدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كل ذلـك له أثـره العظيـم في الرغبة بالتوبـة، والعزم علـى البعد عن المعاصي، خاصةً وقد شرَّفَهُ الله بأداء هذه العبادة، فكيف يتدنَّس بالخطيئـات وقد طُهّر منها؟! وكيف لا يسـتحي من ربه وقد عفا عن إساءته؟!

والتوبـة منزلةٌ شـريفة، ومرتبـةٌ منيفـة، أحبَّها الله مـن عباده، وجعلها سبيل محبته، وطريق رضاه عنهم، وعفوه عن خطيئاتهم، وهي منزلة رفيعة، مَنْ بلغها فقد بلغ السـؤدد من الخير والفضل، يكفيـك في فضل التوبة محبة الله لأهلها، قـال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[1].

وكلمـا أيقن العبـد بحاجته لها وجدتَهُ أسـرع النَّاس للطاعة، وأبعدهـم عن المعصية، لعلمـه بعظيم حق ربه عليـه، وتراه كثير الحيـاء منه، ويـؤوب إليه علـى الدوام لإيمانـه أنَّ ربَّـهُ أحقُّ من استُحي منه.

(١) [سورة البقرة: الآية ٢٢٢]

وأنتَ إذا رأيتَ بعضَ الحُجَّاج وقد عادوا من حجّهم، وأحوالهم كما هي من تفريطٍ في الصلوات، وعدم تحرُّزٍ من الذنوب والخطيئات، أيقنت بضعف أثر الحجِّ عليهم، بخلاف من أدّى الفرض بإتقان، وقام به على أكمل حال، فإنه ينتفع به النفع المرجوَّ منه، فاللهُ إنَّما شرع الشرائع لتهذيب النفوس وإصلاحها، وتطهيرها من أدرانها، فما دُمتَ في مناسك الحجِّ، وفي مواطن الرَّحَمات، فاجتهد أن يكون حجك مبرورًا، سليمًا من الخطيئات، وإن وقعت في خطيئة أو ذنب -ولا يسلم أحد- فبادِرْ إلى التوبة والندم وكثرة الاستغفار.

إنَّ مَن تفكّر في سرعة زمن الحجِّ دعاه هذا إلى أن يستحضر سرعة زوال الدنيا، وارتحال المرء عنها، فهو يقدم إلى مكة والمشاعر، ثمَّ لا يلبث إلا أيَّامًا معدودات ويعودإلى أهله، وكأنَّه لم يغادرهم، وتمضي ساعات الحجِّ بسرعة عجيبة، وهكذا الدنيا تمضي وترحل، وصدق اللهُ القائلُ: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾[1] وهذا من أعظم الدروس التي ينبغي استحضارها والانتفاع بها.

(١) [سورة غافر: الآية ٣٩]

ومـن تأمَّل في حاله وقد أدَّى فرض حجِّهِ على التمام، وسـعى في إكماله، وحفظ جوارحه فيه، وإن وفق وحافظ على وقته وملأه بالطاعـات، دعـاه هذا إلى أن يعود باللَّوم على نفسـه، فهي قادرةٌ علـى الطاعات، ومسـتطيعة للقيـام بأمر الله واسـتثمار العمر بما يُقرِّبهـا إلى ربها، فلمـاذا خَلْق الأعذار، وتَوَهُّمُ عـدمِ القدرة على الطاعة، وادِّعاءُ صُعُوبةِ فعلِ الباقيات الصالحات؟!

إنَّهُ ليس أكرم على المرء من نفسه التي بين جنبيه، ولا إحسان كالإحسـان الذي يقدمه لها، فلِم يَحرم أحدُنا نفسـه من الطاعات التي تنفعه، وتكون له زادًا ليوم التناد؟!

وإنها لفرصةٌ للحاجِّ أن ينتفع من هذا الفرض، وغنيمة يغتنمها الموفـق ليجعل حجَّـه مُنطلقًا لِما يقرِّبُـهُ إلى ربـه، فالحياة الدنيا قصيرة جدًّا، والآخرة هي الحياة الحقيقة التي ينبغي السـعي لها، وإيثارها، والعناية بشأنها.

ومن الحجِّ يتعلَّم المرء أنَّ البيئة الحسـنة والصحبة الطيبة لها أثرها على صاحبها، فقد صَاحَبَ الحاجُّ في حجِّهِ الأخيار، وكانوا

خيـر معينٍ له على الطاعة، فلِمَ لا يحرص أحدُنا على هذه البيئة، وتلك الصحبة التي ستكون أعظم معين له على الاستمرار على الطاعة، وخير سبيل لاستدامتها؟!

اللهـم وفقنا للتوبـة النصوح، وخـذ بأيدينا لِمـا يُرضيك عنَّا ياربّ العالمين.

❊❊❊

الحجّ وترك الترفّه

الحـجُّ طريـق لاكتسـاب كل فضيلة، وسـبيلٌ لسـمو النفس وارتقائها؛ وممّا يكتسـبه الحـاجُّ في حجّه: علّو همّتـه، واهتمامه بمعالي المقاصد، ومعلومٌ أنّ الحاجَّ إنّما خرج من بيته لأداء عبادة الحجّ، وكلُّ ما سوى ذلك فهو دون هذا المقصد الشريف بكثير، وسـيترك بعض ما اعتـاد عليه من طعام وشـراب ومبيت وراحة، فعليه توطين نفسه على الصبر والتحمّل والاحتساب.

ولمّـا كان الترفّـه في الحجِّ ظاهرًا في هذه السـنوات المتأخرة، والتوسّع في هذا الجانب بارزًا كان لهذا وقفةً مع هذه الصفحات.

اعلم وفقك الله -أيّها الحاجّ- لطاعته أنّ الترفّه الزائد مذموم، والتوسّـع في هذا ممقوت في كلِّ أحوال المرء -وفي الحجِّ أشـدّ- وهـو خلاف ما كان عليه السـلف الصالح في حجّهـم، فقد كانوا متواضعين خاشعين لله فيه، فعن عبدالله بن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: (حَجَّ أَنَسٌ علَى رَحْلٍ، ولَمْ يَكُنْ شَحِيحًا، وحَدَّثَ: أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّ علَى رَحْلٍ وكَانَتْ زَامِلَتَهُ)[1].

(١) رواه البخاري

والرحْل هو: الشَّدَّادُ الذي يُوضَع على ظَهْرِ البَعيرِ ليُرْكَبَ عليه.

وقولـه: (وكانَت زامِلتَه) الزَّاملةُ هي: البَعيرُ الذي يُحمَلُ عليه الطَّعـامُ والمَتاعُ. وعـادةُ الكُبراءِ أنْ تكـونَ الزَّاملةُ غيـرَ الراحلةِ، فمِـنْ تَواضُعِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّـه كانت راحلتُه هـي زاملتَه، وحجّ على رَحْلٍ مُتواضعٍ، ففي الحديثِ: تَرْكُ التَّرَفِ في الحجِّ، وإظهارُ التَّواضُعِ والمَسكَنةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

قـال المنـذري في كتابـه الترغيـب والترهيـب: (الترغيب في التواضـع في الحـج والتبـذّل، ولبـس الدون مـن الثيـاب، اقتداءً بالأنبيـاء عليهم الصلاة والسـلام) ثـم ذكر عددًا مـن الأحاديث الدالـة على ذلـك، ومنها حديث أبي هريرة قال: قال رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ اللهَ يُباهي بأهلِ عرفاتٍ أهلَ السَّـماءِ، فيقولُ لهم: انظروا إلى عبادي جاءوني شُعثًا غُبرًا"(١).

وقد سار على هذا الصالحون في حجّهم، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهـو في طريقـه إلـى مكة-وقـد رأى أناسًـا محرمين-: (تشـعثون، وتغبرون، وتتفلون، وتضحون، لا تريدون بذلك شيئا

(١) رواه ابن خزيمه، وصححّه الألباني.

من عَرَض الدنيا، ما نعلم سفرًا خيرًا من هذا -يعني الحج-).

وقال مجاهد: (قال رجلٌ عند ابن عمر: ما أكثر الحاج؛ فقال ابن عمر: ما أقلهم، ورأى ابن عمر رجلا على بعير على رحْلٍ رث خطامه حبل فقال: لعل هذا)

وقيل لبعض الصلحاء: ما المعني في شعث المحرم؟ قال: (ليشهد اللهُ تعالى منك الإعراض عن العناية بنفسك، فيعلم صدقك في بذلها لطاعته).

وقال النووي -بعد ذكر محظورات الإحرام-: (قال العلماءُ: والحكمة في تحريم اللباس المذكور على المحرم ولباسه الإزار والرداء أن يبعد عن التّرفُّه ويتصّف بصفة الخاشع الذليل، وليتذكّر أنه مُحرِم في كل وقت، فيكون أقرب إلى كثرة أذكاره، وأبلغ في مراقبته وصيانته لعبادته، وامتناعه من ارتكاب المحظورات، وليتذكّر به الموت ولباس الأكفان، ويتذكّر البعث يوم القيامة، والناس حفاة عراة مهطعين إلى الداعي، والحكمة في تحريم الطيب والنساء أن يبعد عن التّرفُّه وزينة الدنيا وملاذها، ويجتمع همه لمقاصد الآخرة)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الإحرام مبناه على مفارقة العادات في الترفّه، وترك أنواع الاستمتاعات، فلا يلبس اللباس المعتاد، ولا يتطيّب، ولا يتزيّن، ولا يتظلل ويلازم الخشوع والإخشيشان، ويقصد بيت الله أشعث أغبر)

فينبغي على الحاجِّ أن يكون همّه العناية بنسكه، بعيدًا عن الاهتمام بالمظاهر العامة، وصرف الهمّة للمطعم والمشرب والمبيت -والتي قد توفّرت في زماننا بمالم تتوفّر من قبل- وكم رأينا من خصومات، وربما سِباب وتعدي على الآخرين بسبب تقصير الحَمَلات في خدمة الحاجّ، ولئن كان من حق الحاجّ توفير ما يحتاجه من هذه الأمور، فقد أنفق من ماله الكثير طلبًا للراحة والتفرّغ للعبادة إلا أنّه ينبغي عليه إن لا يكون هذا همّه، فهو إنّما خرج من بيته، ودفع هذه الأموال لأجل الحجّ، وإن رأى تقصيرًا في حقوقه طلبه بطريقة لا تُؤثر على حجّه، فالحجّ أولى أن يُحافظ عليه، فيكون مبتعدًا عن الخصام والمشاجرات، وفعل أمورًا ربما تُؤثر على كمال حجّه تأثيرًا كبيرًا.

وينبغي للحاجّ -أيضًا- أن يستحضر أنّ كل شيء فاته من مأكول ومشروب وراحة نوم، فهو سيُدركه -بإذن الله- بعد حجّه، ولكن أين سيُدرك الطواف والسعي، والمبيت في منى، والوقوف في عرفة، والمبيت في مزدلفة، ورمي الجِمار، فهذه المناسك العظيمة -والتي لها شأنٌ عند الله- لا تكون إلا في هذا الموسم، فلذا ينبغي أن يكون همّه هو كيف أُتقن هذه العبادات، وكيف أؤديها على أكمل وجّه، وكيف يرضى الله بها عني، وكيف أنال من ورائها الأجر، وكيف يكون لها الأثر عليّ في إيماني وتقواي، وفي علاقتي مع الله، وعلاقتي مع الطاعات، أمّا ما سوى ذلك، فلئن فاته شيء فسيعوّضه في أي وقت.

ولا يعني ذلك عدم الاهتمام بنظافة الجسد والملابس، والاغتسال، وتغيير الإحرام، أو أن يكون متبذّلًا تبذّلًا مذمومًا، أو يظنّ -القارئ- الأمر بترك الترفّه بالأكل والشرب، وطلب الراحة، وإنّما المقصود أن لا تكون هي الهمّ الأعظم، أو الانشغال بها كثيرًا، أو الدخول في مشاحنات مع مشرفي الحملات لأجل نقص

الخدمات ممّـا يُؤثر على كمال الحجّ، وليعلم الحاجُّ أنّ الإحرام مبنـاه على مفارقة العادات في الترفّه، وترك أنواع الاستمتاعات، فيـا حُجّاج بيـت الله حُجّوا كما حَجّ الصالحـون، وإياكم والترفّه والتوسّـع في الرفاهية، واعلموا أنكم في عبـادة عظيمة الأجر فيها على قدر النّصب[1].

❋❋❋

(١) [انظر: هكذا حجّ الصالحون والصالحات للدكتور علي عبدالله الصياح]

الحجُّ ومراغمة الشيطان

ممّا هو مقررٌ عند كلِّ مسلمٍ ومسلمة أنّ الشيطانَ عدوٌ مبينٌ للإنسان، وقد أبان الله عن هذا في كتابه، قال الله-تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾[1].

واتخاذِه عدوًا تكون بمراغمته ومجاهدته، والبعد عن اتِّباع خطواته، والحذر من إضلاله.

فهو يسعى أن يصدّ العبد عن الحجِّ، فإن أبى وخالفه، اجتهد أن يُفسد عليه حجّه، أو على أقل تقدير أن يُنقص من أجره فيه، ويجعله لا يُوقعه على أحسن وجّه، يقول الإمام المفُسّر مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهّز معهم إبليس مثل عُدّتهم)**[2].

---

(١) [سورة فاطر: آية ٦]

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

وجاء عن عون بن عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله الله -تعالى-: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ (١).

قال عون: (طريق مكة) وهذا فرد من أفراد معنى قوله -تعالى-: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

فمِنْ كمال الفقه في الحجِّ أن تعلم بعداوة الشيطان لك وسعيه لإغوائك فيه، وحرصه على إفساده عليك، وتقليل أجرك، ممّا يجعلك تستعدّ لهذا الكيد مُبكّرًا.

ولا تظنّ -أيّها الحاجُّ- أن الشيطان ييأس من الإخلال بحجّك، فهو يرضي باليسير منك، ولا يتركك في أي موطن من مواطنه، فيأتيك عند الإحرام فيُفسد عليك نيتك، ويجعلك تلتفت بقلبك للمخلوقين، ويُفسد عليك إخلاصك، ولا يتركك في هذا الشأن طيلة رحلة حجّك.

ويأتيك في الطواف، فيجتهد لإنقاص أجرك فيه وذلك بالغفلة وصرفك عن الذكر والدعاء، وإحضار القلب فيه، ويجتهد أن

(١) [سورة الأعراف: آية ١٦]

تقع في المحظور من النظر المحرّم للنساء ونحو ذلك، ثمّ يأتيك في السعي، ويفعل معك كما فعل في الطواف.

ولا يتركك في الوقوف في عرفة لتوقعه على أكمل وجّه، بل يسعى لتضييع وقتك، ويصرفك عن اغتنامه، وعن الدعاء فيه، وإشغالك -ولو بالمباح- حتى تخسر ما يمكن خسرانه في هذا اليوم العظيم.

ويأتيك في مزدلفة ويُعجّلك لتخرج منها مُبكرًا بلا عذر، ويُكسّلك عن الذكر والدعاء، والاستغفار فيها، ويُشغلك بالأحاديث الكثيرة مع الرفقة، ونحو ذلك.

ويأتيك يوم النحر ليجعلك لا تغتنمه الاغتنام الأمثل، فيُفوّت عليك ما أمكن من سُننه، من الطواف فيه، ورمي الجِمار وقت الضحى، وحلق الرأس وغير ذلك من السُنن التي يُمكن للعبد فعلها فيه إن كان متيسّرًا له، وهكذا أيّام التشريق، فيجعلك تغفل عن الذكر، واغتنامها بالخير.

ويأتيك عند الجمرات، فيجعلك تذهل عن استحضار أنّها عبادة، وتستعجل ولا تُكثر من الدعاء، كُلُّ ذلك بنَفَس طويل منه -أعاذنا الله من شره- حرصًا منه على عدم تكميل حجّك، وخسارة ما يمكن خسارته فيه، فلذا كان لزامًا على الحاجّ أن يحتاط له، ويجتهد للسلامة من شره ووسوسته، وأعظم سبب للنجاة من شره: الاستعاذة بالله منه ومن وسوسته، وكثرة الدعاء وصدق اللجوء إلى اللهُ.

وأيقين -أيّها الحاجُّ- يقينًا كاملًا بضعفه، وأنّ كيده مردودٌ إلى الوسوسة فقط، فإن وجد منك ضعفًا طمِع فيك، وإن وجد منك قوةً يأس منك أو على أقل تقدير ضعف عن إغوائك.

❋❋❋

الحَجُّ وَتَذَكُّرُ الآخرة (عبر ودروس)

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ١٠٣﴾[1].

جاء هـذا الأمر في خاتمة آيات الحَجِّ في سـورة البقرة، موجبًا لتقوى الله، مُذَكِّرًا بالرجوع إليه سـبحانه، وهي من أعظم القضايا وَأَجَلِّ الوصايا.

وَلَئِنِ انتَهى الحُجَّاجُ مـن حَجِّهم، وَتَهَيَّؤُا للعودة إلى أهليهم، فـإن اسـتصحابَ تقوى الله علـى الدَّوامِ مِـن أعظمِ مـا ينبغي أن يكونـوا عليه، ويَتَزَيَّنُوا به في حياتهم كُلِّها، مُتَذَكِّرِينَ حَشـرَهُم إلى ربهم، وعودتهم إليه.

والحجُّ نموذج مُصَغَّرٌ لحياة الإنسـان، فالعبـد يأتي إلى الدنيا ويلبـث فيها زمنًا قد قضاه الله له، حتـى إذا ما انتهى رجع إلى ربه وإلى داره الحقيقية، وهكذا الحَجُّ يُمضِي المرءُ فيهِ أَيَّامًا ثم يرجع إلى أهله.

(١) [سورة البقرة: آية ٢٠٣]

والله قد جعل الدنيا دارَ عَمَلٍ وَتَحصِيلٍ، وَجَعَلَ مَدَارَ الحِسابِ وَالجَزاءِ على ما حَصَّلَهُ فيها المرءُ، فإذا رَجَعَ إلى ربه حُوسِبَ وَجُوزِي عليه، وكذلك الحَاجُّ تَرَكَ أَهلَهُ وَوَطَنَهُ بُغيَةَ الأجرِ والثَّوابِ، ثمَّ ها هو يرجعُ إليهم، بعد أن بذل جُهدَهُ في العمل الصالح وَتَقَرَّبَ إلى ربه.

ويشير قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾ [1] إلى القضية الكبرى والتي اختلف عليها الخلق، (وهي: البعث والنُّشور والرُّجوع إلى الله للحساب والجزاء) فالكُفَّارُ يُنكِرُونها، وأهلُ الإسلام يُوقِنُون بها يقينًا كاملاً، وهذا الحَجُّ نموذج مُصَغَّرٌ لهذه القضية، وبُرهانٌ على وُقُوعها وَحَتمِيَّتِها، فكما اجتمع الناس في حَجِّهم في صعيدٍ واحدٍ على صعيدِ عرفات، ومزدلفةَ وباقي المناسك، فكذلك يَجتمعون ويُحشَرون إلى ربهم يوم القيامة.

وجعل الله الحَجَّ اجتماعًا مُصَغَّرًا لِحَشرِ الآخرة -مع التباين الكبير-، فالخلقُ يجتمعون في مكانٍ واحدٍ، وزمانٍ واحدٍ، ولباسٍ

(١) [سورة البقرة: آية ٢٠٣]

واحـدٍ، ولكنْ بأحوالٍ مختلفةٍ، وقلوبٍ متمايزة، وأعمالٍ مُتباينةٍ، والله عليمٌ بحـال كل واحد منهـم، فكذلك يوم الحشـر إلى الله، يجتمـع النَّاسُ في مـكانٍ واحدٍ، وزمانٍ واحـدٍ، إلا أنَّ الله في ذلك اليـوم يُظهر تمامَ مُلكـه، وتَفَرُّدِه به، وسـعةَ عِلمه، وكمـال قُوَّتِه، ونَفَاذَ أَمرِه، وإذعانَ الخلقِ له، وذِلَّتَهُم بينَ يَدَيه.

وفي الحَـجِّ يجتمـع النَّـاسُ بقصـدٍ واحـدٍ فقط، وهـو طلب الأجـر من الله تعالى، بلا زينة ظاهـرة وَلا تَرَفُّهٍ كامل، ولا حرصٍ على تكميلِ مطالبِ الجسـد وَمَلَذَّاتِ البـدن، وكذلك في الآخرة يجتمعون ليُجازِيَهُم اللهُ على أعمالهم، ويُحاسِبَهُم على ما قَدَّمَتهُ أَيدِيهم، ولا يَلتَفِتُون لِشَيءٍ إلا لِلعمل.

إِنَّ من مقاصد الحَجِّ الكُبرى تذكيرَ العبد بالدار الآخرة، لأَنَّها هي الـدار الحقيقة، والموطن الأصلي للعباد، والمُسـتَقَرُّ الأخير لهـم، إِمَّا إلى الجَنَّةِ -جعلنا الله من أهلهـا-، وإِمَّا إلى نارٍ -تَلَظَّى أجارنا الله منها-.

فَيَا لله كم في الحَجِّ من دروس وعِبَرٍ وعِظَاتٍ لو وَعَتها القلوب والأفئدة.

وتَذَكُّرُ الآخرةِ يَحمِلُ النفس على الطاعة، ويَحُثُّها على العمل لها، وَمَن سكن في قلبه حقيقةُ الآخرة، فقد سَكَنَ في قلبه الخَيرُ كُلُّهُ.

ومِن توفيقِ الله لعبده أن يجعلَ هَمَّهُ الآخرة، فتراه يعمل لها، ويعتني بشأنها، ويستعدُّ لها، حتى إذا ما فجأه الموت كان مُستَعِدًّا له.

(نزلت سكرات الموت بأحد الصالحين، فبكى عندَهُ وَلَدُهُ، فقال له: يا بُنيَّ لا تَبكِ؛ فَإِنَّ أَباكَ مُنذُ أَربَعينَ سنةً قَد استَعَدَّ لهذه اللَّحظَة) فأين هذا مِن حال مَن إذا نزل به المَوتُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾[1] فقد كان مفرِّطًا في حياته، مُسَوِّفًا في عمله، قد غلبه طول الأمل، وغرَّته الدنيا وزُخرفُها، وظَنَّ المِسكينُ أَنَّ عُمُرَهُ طويل، وكأَنَّهُ يُستشارُ عند موته، ولم يَعتبر بمن حوله ممَّن خُطِفَت أَروَاحُهُم في مقتبل أعمارهم، فَحَرِيٌّ بمن وُفِّق للحَجِّ، وهو يستعِدُّ للرجوع إلى أهله أن يكون مُستَعِدًّا للنُّقلَةِ من

(١) [سورة المؤمنون: الآيات ٩٩-١٠٠]

الدنيا إلى الآخرة، وأن يكون مُتَهَيِّئًا للرَّحيل في أي لحظة، وأعظم ما يستعد به المؤمن أن يكون مُؤَدِّيًا لفرضه وما أوجبه الله عليه، مُبتَعِدًا عن الذنوب غَيرَ مُصِرٍّ عليها، فمثل هذا تُرجى له النجاة.

اللَّهُمَّ اختِمْ لنا بخير، واجعل عاقبةَ أُمُورِنا إلى خير.

❊❊❊

ماذا بعدَ الحج؟!

لكل بداية نهاية، ولكل سفر عودة إلاَّ السفرَ للآخرة، فيعود الحُجَّاجُ اليوم إلى أوطانهم بعدما مَنَّ الله عليهم بنعمة الحَجِّ إلى بيته الحرام.

يعودون وقلوبُهُم مُمتلئة حَمدًا لربهم الَّذِي وفَّقهم لإتمامه، ويَقفُلُون راجعين شاكرين بألسنتهم على جميل مِنَّتِه.

وها هي رِحلة الحَجِّ تَنتهي، وأَيَّامُهُ تَنقضي، وتَفرغُ مِنًى مِنَ الحُجَّاج.

إِنَّها الرحلةُ المباركة في سفر العبادة والقُربة للرحمن، وهي خير رحلات العبد عند الله تعالى، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(ما نَعلَمُ سَفَرًا خَيرًا من هذا، يعني الحج)**.

يعودون ونفوسهم يَسكنها الفرح والسرور، وقلوبهم وَجِلَةٌ بينَ الرَّدِّ والقبول، فأعظمُ أُمنِيَّاتِهِم الثواب، وأرجى مطالبِهِم الفوز بالرضوان، وهم يُحسنون الظَّنَّ بربهم، ويَثِقُون بِمَوعُودِهِ للعابدين، وعطائِهِ للمجتهدين، وأَنَّهُم سيفوزون بالكرامةِ بإذنِهِ تعالى.

وَإِنَّ مـن علامـات القبول أَن يكونَ حالُ الحَـاجِّ بعدَ الحجِّ في الطاعات أفضلَ، ورغبتُهُ في فعل القربات أعظَمَ، ذَلِكَ أَنَّ لِطَاعَاتِ الحَـجِّ أَثَرَهَا البَيِّنَ علـى صاحبها، وَثَمَرَتُها وَاضِحَـةٌ على أهلها، فأَعظَمُهم فَوزًا مَن عاد مِن حَجِّهِ وقد هُذِّبت نَفسُه، وزادت رغبتُه في الخير، وصار نافِرًا من المعصية والذنب.

والحَـجُّ ليس هو نهايـةَ العبادات والطاعات، بـل لَعلَّهُ البدايةُ الجادَّةُ لِمَن كان مُتَكاسِـلا عنها، والعودة الصادقة لمن كان بعيدًا عن مواطنها، والقُوَّةُ المعينةُ على فعلها لمن كان ضعيفًا فيها.

فَعَلى مَن وُفِّقَ للحَجِّ أن يحتسب على الله أَنَّهُ طُهَّرَت صَحِيفَتَه، وَبُيِّضَ ما اسَـودَّ منهـا، فكيف يليقُ بمثله أن يتسـاهلَ بِتَسـويدِها وَقَد بُيِّضَت، وتَدنِيسِـها وقد طُهِّرت، ولْيستَحضِرْ أَنَّ الطاعة هي عَيـنُ العِزِّ والكرامـة، والمعصية هي حقيقة الـذُلِّ والمهانة، كان الإمـام أحمدُ يدعـو ويقولُ: (اللَّهُـمَّ أَعِزَّني بطاعتـك، ولا تُذِلَّني بمعصيتـك) وكان عامةُ دُعاءِ إبراهيمَ بنِ أَدهَمَ: (اللَّهُمَّ انقُلْني مِن ذُلِّ المعصيـة إلى عِزِّ الطاعة) والحَـجُّ من أعظم الفُرَصِ للانتقال من ذُلِّ المعصيه وهوانها إلى عِزِّ الطاعةِ وشرفها.

ومن عاد مِن حَجِّهِ وكان مُقَصِّرًا في صلاته ولم يَزَلْ مُتَهَاوِنًا فيها، ومُتَساهِلًا بالذُّنوب ولم يَزَلْ مُستَهترًا في ارتِكابِها وعدمِ التَّوَرُّعِ عنها، أوْ آكِلاً لِلحَرَام ولم يزل مُتَعَدِّيًا على حقوق الآخرينَ، أَو قَاطِعًا لِرَحِمِهِ ولم يَزَلْ هَاجِرًا لِقَرابَتِه، أَو مُطلِقًا لِبَصَرِهِ العِنانَ وَلِلسَانِهِ الزِّمامَ، ولم يَزَلْ غيرَ مُتَوَرِّعٍ عن النَّظَرِ إلى الحرام أوِ التَّلَفُّظِ به ، فَحَقٌّ على مثل هذا أن يُراجِعَ نَفسَهُ قَبلَ فَواتِ الأوان.

وَإِنَّ مِن شُكرِ الله على التوفيق والتيسير والتسهيل لفعل الطاعات أن يجتهدَ صاحبُها في الاستدامة عليها والثبات عليها، وقد جعل الله لذلك أَسبابًا، فَحَرِيٌّ بالحاجِّ العناية بها ورعايتها حتى يثبت على الخير، ويزدادَ منه، ومن هذه الأسباب:

العزيمةُ الصادقة على الثبات على العمل الصالح، ومجاهدة النفس على ذلك، وَمَن كان حديث عهد بطاعة، فليَغتَنِمْ هذا، فلعله أن يكون بدايةَ الثبات على ما يُرضي الله عنه.

العناية بفريضة الصلاة، فهي أعظم ما أمر اللهُ به، وهي السبيل لِما بعدها من الطاعات والقربات.

اجعل لك نوافلَ ثابتةً لا تتركها أبدًا، ولعل مِن أهمها: السُّـنَنَ الرواتـب، وَصـلاةَ ركعاتٍ يسـيراتٍ من الليـل والمحافظةَ على صـلاةِ الوِتـرِ كُلَّ ليلة، وتِـلاوةَ القُرآنِ كُلَّ يـوم، وَالمُحافظةَ على أذكار الصبـاح والمسـاء، ففي هذا خيـرٌ كثيرٌ للعبد، ولهُ أحسـنُ الأثر في الثبات على العمل الصالح.

اجتهـد أن تَلتَحِـقَ بِصُحبَةٍ طيبـةٍ تُعينك على الثبـات، فالمرءُ ضعيفٌ بنفسـه قويٌّ بإخوانه، وقد رأيتَ أثـرَ الصُّحبةِ في حَجِّك، وهـم موجودون في كُلِّ زمانٍ ومكان، ولكنْ تبقى الرغبةُ الصادقةُ عِندَ المرء.

اِلزَمْ بابَ الدعاء، فهو البابُ الذي لا يَخِيبُ داخِلُهُ، والسَّـبيلُ الـذي لا يَضِلُّ سـالِكُهُ، اُدعُ اللهَ بِصِدقٍ وإِخـلاصٍ أن يُثَبِّتَكَ على العمل الصالح ويَزِيدَك منه، ويَشـرحَ صدرَكَ لـه، وأن يَربِطَ على قَلبِكَ فلا تملَّ منهُ.

قَبيحٌ بالمرء أن يَعـودَ إلى الذنوب وقد طَهَّرَهُ اللهُ منها وغفرها له، ولَئِن كان المرءُ لا ينفكُّ عن الذنب إلا أَنَّ التسـاهلَ فيها يُنبِئُ

عنِ استهتار، وضعفِ نَفسٍ وَخَوَرٍ أمامَ الذُّنوب، وهذا -كما لا يخفى عليك- أَمرٌ مذموم في حَقِّ كُلِّ مُسلم، والحاجُّ قد رجع من عبادة جليلة، حقُّها أن تكون سببًا لصلاح النفس وتهذيبها، ولزوم جادَّة الصواب، والبُعدِ عن الذنب (حج بعضُ مَن تَقَدَّم، فبات بمكةَ مع قوم، فَدَعَته نفسُهُ إلى معصية، فسمع هاتِفًا يقول: وَيلَكَ أَلَم تَحُجَّ؟! فعَصَمَهُ الله مِن ذلك)[1].

وحَرِيٌّ بمن عاد إلى وطنه أن يُحاسب نفسه، ويَقِيسَ حقيقة انتفاعِهِ بِعِبادة الحَجِّ، وصلاح حاله بعده، ورغبته في الآخرة وأعمالها، فإن وَجَدَ ذلك فلْيَحمَدِ الله، ثُمّ ليُلزِمْ نفسَهُ جَادَّة الصلاح، وطريقَ الخير، فاللهُ يقبلُ من عبده فِعلَ البِرِّ في أَيِّ وقت، وَلْيَغتَنِمْ أَثَرَ الحَجِّ عليه، وَلْيُوقِنْ أَنَّ الله اصطفاه له، وأَنَّهُ ما أَدَّاهُ إلاَّ استجابةً لأمره، ورجاءً لِرَحمته، وَأَنَّه أَهلٌ لِأَنْ يَكُونَ مِن أهلِ الخير والاستقامة، وها هي الفُرصةُ قد أَتَت، وَوَقتُ لُزُومِ طَرِيقِ الفلاحِ قَد أَقبَلَ، فَلْيَكُنْ أَسرَعَ النَّاسِ إليه.

(١) [لطائف المعارف: ١٦٤]

وَفَّقَنا الله لكل خير، وَرَضِيَ عَنَّا، وأَقبَلَ بقُلُوبِنا للهداية، وشَرَحَ صُدُورنا للطاعة، وَثَبَّتَنا عليها حتى نلقاه، وَتَقَبَّل مِنَّا وَمِنكَ صالح العمل، وَأَستَودِعُكَ اللهَ الذي لا تضيع ودائعُه، والمُلتَقَى الجَنَّةُ إِن شاءَ اللهُ.

أخوك/

الداعي لك بخير: عادل بن عبدالعزيز الجهني

+966504392260

❊❊❊

الفهرس

- المقدمة ٣
- الحجُّ فضائل وآثار ١٢
- الحج والتوحيد، وإخلاص العمل لله فيه ٢٣
- الحجُّ وارتباطه بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ٣٢
- معرفة شرف الزمان والمكان ٤١
- الإحرام ومظاهر العبودية فيه ٥٠
- التلبيةُ والإهلال في الحجِّ ٦٠
- دخولُ مكةَ، وشكر الله تعالى ٦٥
- الطوافُ ومظاهر العبودية فيه ٦٩
- السعيُ واستشعار معانيه ٨٣
- الحجُّ ويوم عرفة، وتحقيق العبودية، وعظمة الرجاء ٩٢
- الحجُّ وليلة مزدلفة، وذكر الله عند المشعر الحرام ١١٥
- الحجُّ ويومُ النحر، أبرك الأعيادِ ١١٩
- الحجُّ ورميُ الجِمار، والثواب المدّخر ١٢٥
- المبيتُ بمنى في ليالي التشريق ١٣١
- الحجُّ وطواف الوداع، ورجاء القبول ١٣٨
- الحج وعبودية الذكر ١٤٠

- الحجُّ وعبودية الدعاء ١٤٦
- الحجُّ والتوبة والاستغفار ١٥٤
- الحجّ وترك الترفّه ١٦١
- الحجُّ ومراغمة الشيطان ١٦٧
- الحَجُّ وَتَذَكُّرُ الآخرة (عبر ودروس) ١٧١
- ماذا بعدَ الحج؟! ١٧٦
- الفهرس ١٨٢

❊❊❊